
مواقف الإمام الإبراهيمي
2
تفسير المعوذتين
للإمام عبد الحميد بن باديس
تحرير الإمام
محمد البشير الإبراهيمي
عالم الأفكار

مواقف الإمام الإبراهيمي

تفسير المعوذتين

للإمام عبد الحميد بن باديس

تحرير الإمام محمد البشير الإبراهيمي

مواقف الإمام الإبراهيمي

(2)

تفسير المعوذتين

للإمام عبد الحميد بن باديس

إعداد وتقديم الدكتور عبد الرزاق قسوم



عالم الأفكار

جميع الحقوق محفوظة للناشر

مؤسسة عالم الأفكار للطباعة والنشر والتوزيع

حي باحة رقم: 89 الليدو المحمدية

الطبعة الأولى

2007

إيداع قانوني: 2007 / 3071

ردمك : 8- 36- 712- 978-9961

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

بقلم الدكتور عبد الرزاق قسوم

ما أروع الأدب القرآني، في سموه وعلوه، خصوصا، حين يقيّض له الله العقل الضليع الذي يستنبط من معاني القرآن، روعة برهانه، والأسلوب البديع الذي يسكب في النفوس حسن بيانه، والفكر الرفيع الذي يصب في بصائر الناس، إعجاز بنيانه.

لقد اجتمعت حكمة العقل، ورقة الصقل، وأمانة النقل، في هذا الكتاب الجامع لأدوات الحفر، بالنثر، فكان الحدث التاريخي الأغر، في حياة الجزائر، كما صنعه رائد النهضة الجزائرية الإمام عبد الحميد بن باديس بختمه لتفسير القرآن، بعد خمس وعشرين سنة من الجهد، وكما رسم معالمه بروعة الأداء، وسمو الصفاء، علاّمة الجزائر، ورمز ثقافتها، الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

تعال معي –يا قارئي العزيز– لنتلمس –معا– خيوط تباشير هذا اليوم الذي أشرق على الجزائر المغلولة بقيود الظلم والظلام، فبدد فيها جحافل اليأس، وغرس بدلها براعم الأمل والعمل.

وصف الشيخ محمد البشير الإبراهيمي عظمة يوم الاحتفال بختم اين باديس للقرآن فقال عنه مخاطبا أبناء شعبه: «ما أشرقت شمس في الجزائر الحديثة على مثل يومكم بالأمس ولقد مضى بجلاله وروعنه، ولم ينطق في وصفه لسان بكلمة، ولا اختلجت في نعته شفتان بحرف... وإنما هو كلام

الله، وبيت الله، عقدا الألسنة بجلالهما، وحبسا النفوس على جمالهما، فجاء اليوم، وجاءت كلية الشعب، يقضيان من ذلك حقا غير مغفل»[1].

مثل احتفال الشعب الجزائري بحدث ختم ابن باديس للقرآن، يوم الثالث عشر من ربيع الثاني عام 1357 هـ، الموافق ليونيو 1938م استشرافا لمستقبل الاحتفال بيوم الاستقلال الوطني بعد ربع قرن من الزمان، أي يوم 5 يوليو 1962م.

فيوم اختتام تفسير القرآن رسم لنا، كما يقول الإمام الإبراهيمي، أسمى أسباب الاحتفال «وأسمى أسباب الاحتفال ما يذكر الجمهور بأمجاده التاريخية، ومفاخره القومية، وفيه نخوة أماتها الضيم، وفحولة قضى عليها التأنث، وذكرى أخنت عليها الغفلة والنسيان، وأصالة خبثتها الأعراق الدسيسة، وعزيمة أطفأتها طباع الضعف والفسولة، وأريحية غطى عليها اللؤم المخزى، والشح المطاع، وشواعر خدرتها تهدئة الدخيل، وزمزمة الحاوي، وهينمة الواغل»[2].

تلك كانت المقدمات السليمة –في يوم الاحتفال الخالد– الذي نسجت خيوطه نهضة الجزائر الإصلاحية الموحِّدة، مجسدةً في قسنطينة رمز الجسور المعلقة، ومدينة الهوى والهواء، كما وصفها أحد شعراء الجزائر.. وكانت النتائج السليمة القريبة المدى والبعيدة المدى..

أما القريبة المدى فقد تمثلت في هذه الوفود التي ربط القرآن بين شمالها وجنوبها، وبين شرقها وغربها «فتهللت الأسارير عند اللقاء، وطفحت الوجوه

---

(1) ص 34.

(2) ص 9.

بالبشر، وانطلقت الألسنة بالتحيات المباركات، وتصافحت القلوب قبل أن تتصافح الأيدي، وامتزج شعاع الأصيل، بشعاع الوجوه المستبشرة، فكان منظرا سحريا أخّاذا لا يستقل بوصفه إلا شاعر ولست شاعرا»[1].

لوحة فنية وحضارية فريدة هذه التي رسمتها ريشة الإمام الإبراهيمي، في تصوير الأمد القريب ليوم الحفل، وأن هذه اللوحة إن هي إلا التمهيد لأيام الجزائر الخالدة كالاحتفال بتدشين دار الحديث والاحتفال بافتتاح دار الطلبة، واندلاع ثورة نوفمبر 54، وإعلان الاستقلال الوطني، واستعادة مسجد «كتشاوة» من براثن التنصير إلى مهده الإسلامي الأصيل، وتلك هي صورة الأمد البعيد، للجزائر المجاهدة.

وإذا كان التطويل في وصف هذه الحفلة قد يفضي إلى التقصير كما يقول الإبراهيمي، فإن «خلاصة القول فيها، أنها كانت زادا روحيا قدمته قسنطينة لوفودها، بعد أن جاوزت الغاية فيما قدمته لهم من أطايب الغذاء البدني. وإن سرها وسحرها ليسا آتيين من الإطراب في العزف، والإطراف في الأناشيد، والإجادة في التمثيل، والإتزان في الحركات، وإنما هما آتيان من شيء آخر وراء هذا كله هو أمل الأمة في أبنائها، الذي كان صورة في الأذهان، ومخيلة في الأدمغة، قرأت منه في هذه الليلة نموذجا عمليا يبشر بتحققه كله»[2].

لم تتزين قسنطينة بمثل ما تزينت به في يوم القرآن، فلبست من كل أنواع الحلل الوطنية ألوانا، امتزج فيها التلمساني بالصحراوي، والوهراني بالعنابي، لتمتزج وتذوب كل الألوان في «الجامع الأخضر» النابض بروح القرآن، وتشييد المثل الوطنية في البنيان..

---

(1) ص 15.

(2) ص 18.

«انتظمت السيارات موكبا بديعا، وزحفت إلى قسنطينة، فدخلتها بعد المغرب، وليس وصف مشهد دخول هذا الموكب إلى قسنطينة، وانغماس الضيوف والمضيفين في غمرة من نشوة الفرح البالغ إلى حد الذهول، بالذي يسعه بياني، وإن وسعه إدراكي وعياني»[1].

من وظائف القرآن.. إلى وظائف أهل القرآن

في تناوله للقرآن ووظائفه، نقل الشيخ عبد الحميد بن باديس، القرآن من وظائف القرآن، إلى وظائف أهل القرآن مع القرآن.

هذا القرآن الذي فعل فعله في النفوس الجزائرية، فجمعها على التقوى، وهداها لكريم الخلال، وبسط شعاعه على جوانبها المظلمة، فتعارفت بعد التناكر وتآلفت بعد التخالف.

«إن القرآن كما يقول الإبراهيمي -دين يحمل في ثنييه دين الله الكامل، وكل ما سبقه من الكتب والصحف، إرهاصات له وبشارات به، وإشارات إليه، وكما يقول الإمام البوصيري:

لا تذكروا الكتب السوالف عنده　　　طلع الصباح، فأطفئوا القنديلا»[2].

ويستخلص الإمام من فكرة الاتباع التي تنص عليها الآية في قوله تعالى: **(وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه)** [سورة الأنعام الآية 153] «بأن الاتباع الذي يدعو إليه القرآن، هو عين الاستقلال التام للفكر، والإرادة، والعقل، والوجدان، لأنه يحميها من شرور الأهواء ويؤويها إلى حمى الحق وحده»[3].

---

(1) ص 15.

(2) ص 6.

(3) ص 4.

ويمضي الشيخ الإبراهيمي في استنباط أحكام القرآن منزلة على واقع الأمة الإسلامية فيضيف: «إن الإسلام يذكرنا، بأن الغاية في هذا الوجود، سيادة في الحق، وسيادة بالحق، وأن لا سبيل إليهما إلا بالعلم والعمل، وأن عمران الأرض متوقف على عمران العقول والنفوس، وبنى الإسلام بذلك، تلك الحضارة التي لا ينكرها إلا مكابر، يماري في الشمس وضحاها»[1].

بين الاتباع والتدبر، في حياة أول الأمة الإسلامية وآخرها، هو الفرق الهائل الذي أفقد أمتنا الكثير من المُثُل «فعدم التدبر أفقدنا العلم، وعدم الاتباع أفقدنا العمل، وإننا لا ننتعش من هذه الكبوة إلا بالرجوع إلى فهم القرآن واتباعه»[2].

هي معادلة عقلية حضارية يصعب فكها في واقع الأمة الإسلامية المتأزم، المعقد. فهل نحن متخلفون، لأننا نتبع القرآن ونعمل على تطبيقه في حياتنا كما يتهمنا بذلك الملاحدة، والعلمانيون؟ أم أننا على العكس من ذلك، نحن سنظل متخلفين طالما لم نتدبر القرآن، ولم نفهمه، وطالما نحن لم نجعله حَكَما بيننا في جميع معاملاتنا، كما يذهب إلى ذلك علماء الأمة الأطباء من أمثال ابن باديس، والإبراهيمي، ومن سبقهما ومن لحقهما.

إن هذه النهضة الإسلامية، بنيت أصولها على الدعوة إلى كتاب الله، وتفهمه والعمل به.

«وقد كان من بواكير ثمار هذه النهضة في باب التأليف، تفسير الإمام النقاد محمود الألوسي على ما فيه من تشدد في المذهبية، وتفسير الأمير

---

(1) ص 6.

(2) ص 7.

صديق حسن خان، ثم جاء إمام النهضة بلا منازع، وفارس الحلبة بلا مدافع الأستاذ الإمام محمد عبده، فجلا بدروسه في تفسير كتاب الله عن حقائقه التي حام حولها من سبقه ولم يقع عليها. وكانت تلك الدروس آية على أن القرآن لا يفسر إلا بلسانين: لسان العرب، ولسان الزمان... وبه وبشيخه جمال الدين، استحكمت هذه النهضة، واستمر مريرها. ثم جاء الشيخ محمد رشيد رضا، جاريا على ذلك المنهج الذي نهجه محمد عبده في تفسير القرآن، كما جاء شارحا لآرائه، وحكمته وفلسفته في الدين، والأخلاق، والاجتماع.

ثم جاء أخونا وصديقنا الأستاذ عبد الحميد بن باديس قائد تلك النهضة بالجزائر، بتفسيره لكلام الله على تلك الطريقة،وهو ممن لا يقصر عمن ذكرناهم في استعمال وسائلها من ملكة بيانية راسخة، وسعة اطلاع على ألسنة وتفقه فيها وغوص على أسرارها، وإحاطة وباع مديد في علم الاجتماع البشري وعوارضه، وإلمام بمنتجات العقول، ومستحدثات الاختراع ومستجدات العمران، يمد ذلك كله قوة خطابية قليلة النظير. وقلم كاتب لا تفل له شباة»[1].

خلاصة تفسير المعوذتين

إن هذا الكتاب الذي نقدمه للقراء، هو كتاب منهجي في التفسير، وتوظيف للتفسير القرآني، من أجل حل مشاكل الأمة.. كما أنه يعتبر نموذجا، يهتدي به الباحثون الشباب، في التعامل مع القرآن، بفهم معاصر، يتنزل على واقع أمتنا، فيكشف جوانب العتمة والظلمة فيها، بنور القرآن، ويطرد منها كل الفهوم الطفيلية، الدخيلة على العقل الإسلامي، كالإسرائيليات القديمة والمحدثة.

---

(1) صفحة 8.

وما كان لهذا المنهج القرآني أن يضمه كتاب كهذا، لولا « يوبيل فضي » أنفقه الإمام عبد الحميد بن باديس في تفسير القرآن، دونما كلل أو ملل.. ولولا تدبر لجي، خصصه الإمام محمد البشير الإبراهيمي لهذا الإنجاز العلمي العظيم. وخدمة منا للقارئ، وللمنهج نقتبس من جلال الحدث، نموذجا لتفسير المعوذتين ختم به الشيخ عبد الحميد بن باديس تفسيره للقرآن.

يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، مقدما تفسير الشيخ باديس لسورتي المعوذتين: «ولقد كان من حسن حظ الجزائر أن باعث النهضة العلمية فيها الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس قد وضع أساس هذه النهضة على قواعد صحيحة من أول يوم، فسلك في درس كلام اللّه أسلوباً سلفي النزعة والمادة، عصري الأسلوب والمرمى مستمدا من آيات القرآن وأسرارها أكثر ممّا هو مستمد من التفاسير وأسفارها. وقد قرأنا له في بعض افتتاحيات مجلة « الشهاب » أنه يعتمد في هذه الدروس على تفاسير مخصوصة في مواضيع مخصوصة، كالطبري في المأثور والكشاف للزمخشري في أسرار الإعجاز، وذلك صحيح ومفيد لمن يجعل فهوم الرجال مقاييس لفهمه، ولا يعطيها أكثر من أنها فهوم تصيب وتخطئ، أما المعنى الصحيح لكتاب اللّه فيستجليه من البيان العربي والشرح النبوي ومن مقاصد الدين وأسرار التشريع، ومن عجائب الكون وسنن اللّه فيه ومن أحكام الاجتماع الإنساني، ومن تصاريف الزمن ونتائج العقول وثمرات العلوم التجريبية »[1].

وعندما ينزل الشيخ عبد الحميد إلى مستوى تبسيط الشرح، ليستوعبه عقل عامة الناس، يبدأ من البداية، أي من تسمية المعوذتين، ومنزلتهما من

---

(1) صفحة 21.

القرآن، فيقول الشيخ في ذلك، كما نقل إلينا ذلك صديقه الشيخ الإبراهيمي: «فتسمية هاتين السورتين بالمعوذتين تسمية نبوية مأثورة كأسماء جميع سور القرآن، وقد يقال المعوذات ويراد بها ما يشمل سورة الإخلاص. وكفى بما فيها من أصول العقائد معاذاً من الشرك وهو أصل الشرور كلها»[1].

ويضيف الشيخ الإبراهيمي موضحا الحكمة من ختم القرآن بالمعوذتين فيقول: «يستطيع ممارس القرآن ومتدبره ومتلقيه بالذهن المشرق والقريحة الصافية أن يستخرج من الحكم في هذا الختم بهما أنواعاً، ولكن أجلاها وأوضحها أنهما ختم على كنوز القرآن في نفس المؤمن. وتحصين لهذه النعم المنثالة من القرآن عليه أن يكدرها عليه كيد كائد أو حسد حاسد. فإن من أوتي الشيء الكريم ورزق النعمة الهنية هو الذي تمتد إليه أيدي الأشرار وألسنتهم بالسوء، وتقذفه عيونهم بالشرر وتتطلع إليه نفوسهم بالحسد والبغضاء، ويشتد عليه تكالبهم سعياً في سلبه منه أو تكديره عليه، وبقدر النعمة يكون الحسد»[2].

ويمضي الشيخ باديس في تجلياته عن سورتي المعوذتين فيصل إلى هذه النتيجة: «إن الإنسان مهما امتدّ في العلم باعه، واشتد بالحكمة اضطّلاعه، فإنه لا يستغني عن اللّه ولا بد له من الالتجاء إليه والاعتصام به، يستدفع به شر الأشرار وحسد الحاسدين، وكفى بهذه التربية قامعاً للغرور، وإنه لشر الشرور»[3].

---

(1) صفحة 22.

(2) صفحة 23.

(3) المصدر السابق.

فإذا عمد الشيخ إلى تفكيك المعوذات لجأ إلى تحليل الكلمات المركبة للجمل، كالفلق، والنفاثات، والحسد، لينتهي إلى هذا التحليل اللغوي الرائع: «والفلق: الفجر المفلوق المفري، ومن لطائف هذه اللغة الشريفة أن: الفتح والفلح والفجر والفلق والفرق والفتق والفري والفأ والفقأ والفقه، كلها ذات دلالات واحدة، وتخصيصها بمتعلقاتها باب من فقه اللغة عظيم»[1].

هذا كله في الشر على عمومه، ثم خصص تعالى من هذا العموم ثلاثة أنواع من الشر لشدة تعلقها بحياة الإنسان.... هذه الثلاثة هي: «الغاسق إذا وقب» و«النفاثات في العقد» و«الحاسد إذا حسد» والجامع بين الثلاثة هو اشتراكها في الخفاء، فإن الغاسق ظلام تخفى فيه الشرور، والنفاثات مبنى أمرهن على الإخفاء تهييلا، وإيهاما، والحسد داء دفين. فالثلاثة كما ترون شرها خفي، وكل شر يخفى عمله أو يخفى أثره يجل خطبه، ويعظم خطره فيعسر التوقي منه... ومن جهة أخرى تجد التناسب ظاهرا بين الثلاثة: الغاسق، والنفاثات، والحاسد، فإن الجميع ظلام، ظلام الزمن، وظلام السحر، وظلام الحسد»[2].

والعرب تشير إلى هذا بالمثل القائل: «الليل أخفى للويل».

وهكذا ينتهي الشيخ المفسر إلى حقيقة هامة يستنبطها من المناسبة فيقول: «إن المناسبة بين السورتين يرشد إليها اشتراكهما في الوصف وهو التعوذ بهما من الشرور المذكورة فيهما، وفي السورة الأولى الاستعاذة من الشر العام ومن ثلاثة أنواع منه ذكرنا الحكمة في تخصيصها بالذكر. وفي هذه السورة الاستعاذة من شر واحد لكنه سبب في شرور كثيرة»[3].

(1) صفحة 23.

(2) صفحة 26.

(3) صفحة 30.

الخاتمة:

لقد عشنا بسبحات الشيخ الإبراهيمي الفكرية والروحية، معاني هذا اليوم العظيم في حياة الجزائر العربية المسلمة بمناسبة ختم الإمام عبد الحميد بن باديس للقرآن الكريم، بعد ربع قرن من الجهد الدؤوب، المتواصل، وكيف كانت تنطلق أشعته على الجزائر كلها من «الجامع الأخضر» بقسنطينة، فحولت جدبها إلى خصوبة، وقحطها إلى اخضرار. «هذا هو اليوم الذي التفَّت فيه الأمّة حول دينها ولغتها فأثبتت أنها أمّة مسلمة عربية يأبى لها دينها أن تلين فيه للعاجم، وتأبى لها عربيتها أن تدين فيها للأعاجم»[1].

فعل القرآن فعله -إذن- في الأولين من المسلمين، حينما جعلوه خلقا يمشي في حياتهم، وحكما بينهم في قضاياهم، وأغفله المتأخرون، حينما اتخذوه مهجورا، فحلت بهم النكبات، ونزلت بهم المحن الماحقات...

وكيف يكون الخلاص من واقع الأمة الإسلامية المتردي؟ يشخص لنا طبيبها الاجتماعي محمد البشير الإبراهيمي أعراض الداء، ويرسم لنا طريقة الدواء فيصيح فينا: «قارنوا بين هذه الأمّة الإسلامية المطوية في بطن الأرض وفي بطون الكتب، وبين هذه الأمّة الإسلامية التي تدب على وجه الأرض تجدوا الفرق بعيداً جداً، ووجوه الشّبه مفقودة البتة مع وجود الاشتراك في الاسم والنسبة. ثم التمسوا السبب تجدوه قريباً منكم، وما هو إلا هذا القرآن، أقامه الأولون وجمعوا عليه قلوبهم وراضوا نفوسهم على أخلاقه، فعلَّمهم الإيمان والأمان والإحسان، واتخذه الآخرون مهجورا فحقت عليهم كلمة اللّه

(1) صفحة 35.

في أمثالهم. فمن لي بمن يرسلها في مسلمي الدعوى والعصبية صيحة داوية: يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن؟»[1].

خلّد الله ذكرى علمائنا المصلحين، الذين عالجوا داء الأمة بالقرآن، فمهّدوا لها سبيل الخلاص، ورسموا لها طريق التحرر.

رحم الله إمام نهضة الجزائر عبد الحميد بن باديس الذي أتمّ تفسير كتاب الله ببيانه المشرق، فأيقض -بالقرآن- الأمة من سباتها.

وأنزل الله شآبيب رحمته على خليفة ابن باديس من بعده، الذي جعل من القرآن دستورا لمحاربة الاستعمار، وشعارا لتحصين الأمة من كل أنواع الشرور، والفجور، فكان الاستقلال الوطني، وكان ثبات الجزائر على إسلامها، وعروبتها، رغم كيد الكائدين ومكر الماكرين، وصدق الله العظيم في قوله: **﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾**[2].

---

(1) صفحة 37.

(2) سورة الرعد، الآية 27.

1 - تمهيد(*)

أتمّ اللّه نعمته على القطر الجزائري بختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير الكتاب الكريم درسًا على الطريقة السلفية. وكان إكماله إياه على هذه الطريقة في خمس وعشرين سنة متواليات مفخرة مدخرة لهذا القطر. وبشرى عامة لدعاة الإصلاح الديني في العالم الإسلامي كله، تمسح عن نفوسهم الأسى والحزن لِما عاق إمام المصلحين محمد عبده عن إتمامه درسًا، ولِما عاق حواريه الإمام رشيد رضا عن إتمامه كتابةً.

إن إكمال تفسير القرآن على تلك الطريقة في مدة تساوي –بعد حذف الفترات– المدة التي أكمل الله نزوله فيها، يعد في نظر المتوسمين إيذانًا من اللّه برجوع دولة القرآن إلى الوجود، وتمكين سلطانه في الأرض، وطلوع شمسه من جديد، وظهور المعجزة المحمدية كرة أخرى في هذا الكون.

كان الاحتفال بختمه بمدينة قسنطينة في الثالث عشر من ربيع الثاني عام 1357 هـ الموافق لـ يونيو 1938م دليلاً على انسياق الأمّة الجزائرية المسلمة إلى القرآن واستجابتها لداعي القرآن واجتماع قلوبها على القرآن وشعورها بلزوم الرجوع إلى هداية القرآن، ولا معنى لذلك كله إلا أن إحياء القرآن على الطريقة السلفية إحياء للأمّة التي تدين به.

(*) «الشهاب»، الجزء الرابع، المجلد 14، جوان – جويلية 1938، ص 153، عدد خاص من «الشهاب» بمناسبة ختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير القرآن.

ثم جاءت حفلات التكريم للأستاذ المفسّر ولوفود القرآن، وما لقيته تلك الوفود من سكان الحاضرة القسنطينية من صدق الحفاوة وكرم اللقاء وبشاشة المظهر وتهلل الأسرة وإكرام المثوى وإغداق الضيافة، آية بالغة على أن القرآن فعل فعله في تلك النفوس فجمعها على التقوى وهداها لكريم الخلال وبسط شعاعه على جوانبها المظلمة، فتعارفت بعد التناكر وتآلفت بعد التخالف، ويوشك أن يأتي بعد هذا التعارف الخير الكثير.

ولما كانت مجلة «الشهاب» هي لسان الحركة الإصلاحية التي قرّبت ما بين الأمّة وبين قرآنها من بعد، وأزالت ما بينهما من جفاء، كانت تلك المجلة حقيقة بأن تؤرّخ لهذا الموسم القرآني العظيم وتدوّن وصفه وما قيل فيه ليبقى تذكرة خالدة للأجيال المقبلة، وصفحة لامعة في تاريخ النهضة الدينية العلمية بالجزائر، وعلماً هادياً لمؤرخيها والباحثين عن أطوارها من أبناء الغد.

وهل يمنع من ذلك أن صاحب المجلة هو الأستاذ المفسّر، وأن معظم ما قيل في الاحتفال دائر على تقريظه والثناء عليه والتنويه بأعماله؟

قد كان بعض ذلك، وأبت للأستاذ همّته العلمية وإخلاصه العمل للّه أن لا ينشر في «الشهاب» إلا ما هو من حقوق الدين والعلم والعربية دون ما هو من حظوظ النفس وتمجيد الشخص. ولكن إخوانه من رجال العلم والأدب الحريصين على تخليد هذا الاجتماع القرآني المنقطع النظير رغبوا منه أن يتنازل عن حقه من مجلة «الشهاب» هذه المرّة، وأقنعوه بأن كل كلمة قيلت في مدح شخصه والثناء عليه فهي مصروفة إلى أعماله، وإلى المبدإ الذي وقف حياته عليه وإلى النهضة التي كان –بحق– بانيها ومشيّد أركانها وإلى الأمّة التي أنفق عمره وقواه في سبيل نفعها وإحيائها: وبأن تسجيل هذه الصفحة

الوضّاءة من صفحات الإصلاح، من الواجبات على «الشهاب» لتتصل خطواته في خدمة الإصلاح الديني وتسجيل أطواره، وتتناسق صحائفه المدوّنة لتاريخه وأخباره، فاقتنع –حفظه الله– وأذن في أن يكون هذا العدد من «الشهاب» خاصًا بالاحتفال وتوابعه. وطلب من رفيقه الوفي كاتب هذه السطور أن يكتب بقلمه كلمة في تصدير العدد، وكلمة في تصوير الاحتفال وتلخيصًا لما علق بذهنه من ألفاظ درس الختم ومعانيه ففعل بقدر ما وسعه وقته وحاله، وعسى أن نكون وُفّقنا لإرضاء المتعطّشين المترقبين الذين حبستهم الأعذار عن حضور الاحتفال.

الإبراهيمي – تلمسان

2- كلمة التصدير لهذا العدد (*)

سُئل بعض العلماء: أية آية تصلح أن تكون عنوانًا على القرآن كله بحيث إذا كُتبت على ظهر المصحف كانت تعريفًا كاملاً به، شاملاً لجميع المعاني الكلّية التي يجدها المتصفِّح فيه كما تعرف الكتب الكبيرة بجمل قصيرة، فكان جواب هذا العالم: الآية التي تصلح لذلك هي قوله تعالى: ﴿هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنّما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب﴾ [1].

ولعمري لقد وُفّق هذا العالم القرآني إلى الصواب فيما أجاب به. فالقرآن ـب يحمل في ثنييه دين اللّه الكامل، وكل ما سبقه من الكتب والصحف فهي إرهاصات له وبشارات به وإشارات إليه. ابتعث به نبيه الأمين محمداً ﷺ لهذا العالم الإنساني كله حين بلغ رشده الاجتماعي واستعد للكمال واستشرف لسائق من وراء العقل يكون سنداً له إذا زلّ، وهاديًا له إذا ضلّ، ومصححًا لخطإه إذا أخطأ، ومخرجًا له من ظلمات الحيرة إذا التبست عليه مناهج الحياة، ومفسحًا له في آماله إذا ضيقت عليه هذه الحياة المحدودة حدود الآمال، ومحرّرًا له من أصناف العبودية الفكرية والبدنية التي تقلب فيها قرونًا، ومرشداً إياه إلى وسائل الكمال التي كان يطلبها فلا يجدها.

والآية الكريمة التي جعلها جوابًا لسائله بيان إلهي معجز للحكم التي اقتضت نزول القرآن والحكم التي نزل لبيانها القرآن والمثل العليا للكمال

(*) «الشهاب» الجزاء الرابع، المجلد الرابع عشر، جوان – جويلية 1938، ص 156.

(1) سورة إبراهيم الآية 52.

الإنساني الذي دعا إليه القرآن متدرجة في وضعها البياني تدرجها الطبيعي من نفس سامعها، بلاغ فإنذار، فعلم، فتذكّر.

وأمثال هذا العالم من ربانيّي هذه الأمّة ممّن درسوا القرآن وتدبّروه ومارسوه وراضوا أنفسهم على بيانه، واستنبطوا منه الحكم التي أنزل لتحقيقها والعلوم التي جاء لتجليتها على الناس، يكون من خصائصهم هذه الملكة، ملكة استعراض القرآن في مثل ارتداد الطرف كلما تحرك لهم وجدان وأرادوا أن يزنوه، أو نجم في آفاق نفوسهم خاطر وأرادوا أن يصححوه، أو ألقي عليهم سؤال وأرادوا أن يجيبوا عليه.

وما تظن بصاحبنا هذا أنه راعى القانون الاصطلاحي الجدلي في انطباق الجواب على السؤال، وإنما هي هيمنة القرآن على نفوس أصحابه، وإلهامها الإصابة في الرأي والتسديد في الجواب والفيح في الخصومة.

فالسائل يطلب آية جامعة (لوظائف) القرآن، لا جرم أن أول ما يخطر ببال المجيب أمثال قوله تعالى: ﴿**يا أيها الرسول بلّغ..**﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿**وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به..**﴾[2]. وقوله: ﴿**قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد**﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿**فذكر بالقرآن من يخاف وعيدي**﴾[4] وغيرها من الآيات المبيّنة لأصول الدعوة القرآنية. ثم يلتمس راية تجمع هذه الأصول مع التنويه بهذا الكتاب الجامع لها، فيقع على تلك الآية أو ما شاكلها والآيات الجامعة (لوظائف) القرآن كثيرة، ومن السهل السريع الوقوع عليها عند هذه الطائفة التي أوتيت قوة الاستعراض.

---

(1) المائدة / 67.

(2) الأنعام/ 19.

(3) الكهف / 110.

(4) ق / 45.

وقد يسأل عالم آخر فيقع على قوله تعالى: (**هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتّقين**)[1] أو قوله: (**هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق**)[2]. والكل مصيب رضي القانون الجدلي أم سخط. وإن كان هناك تفاوت بين الآيات في الإحاطة والبيان، فلكل جملة تزيد في آية موقع ودلالة ولكل كلمة تزيد في جملة معنى وحالة.

أما أنا –ولا أعوذ بالله من كلمة أنا– فلو أُلقي عليّ هذا السؤال لتمردت على قوانين الجدال وأجبت على المغافصة والارتجال، ولم أرع إلا الاعتبار المناسب ومقتضى الحال. وجررت السائل (عن وظائف) القرآن إلى (وظائف) أهل القرآن مع القرآن، وقلت للسائل ضع على ظهر المصحف بالقلم العريض قوله تعالى: (**وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتّقوا لعلكم تُرحمون**)[3]. وقوله: (**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب**)[4] واجعل جملتي (**فاتبعوه**) و(**ليدبروا آياته**) بين أقواس علّ هذه الأقواس المحنية تصيب من قارئه شاكلة انتباه فتزعجه إلى معرفة أن هاتين الآيتين هما جواز الداخل إلى أقطار القرآن، وعلّ هذه القلوب القاسية تستشعر حق القرآن عليها ووظيفتها التي يجب أن تقوم بها نحوه، وهي التدبر لمعانيه واتباعه.

إن حقوق القرآن علينا من التدبر والاتباع، هي التي يعروها ما يعروها من الإهمال والضياع والتفريط والغفلة. فهي التي يجب التنبيه لها والتذكير بها دائماً والدلالة على مواقعها من آيات الكتاب العزيز، وهي التي يجب على

---

(1) آل عمران / 138.
(2) الجاثية / 29.
(3) الأنعام / 155.
(4) ص / 29.

العالم القرآني أن يختار للتذكير بها أصرح الآيات في معناها وأظهر الجمل في الدلالة عليها وأقرب الألفاظ لأذهان الناس. وإذا قرنّا بين ﴿لينذروا﴾ وبين ﴿ليدبروا آياته﴾ وجدنا بينهما فرقًا جليًا لا يُستهان به في مقام التذكير والإبلاغ في التأثير. فإن الإنذار -وإن كان معناه الإعلام بالشيء مع التخويف من عواقبه- لا يستلزم التدبر الذي هو انفعال نفساني ذاتي يفضي إلى النظر في إدبار الشيء وغاياته على وجه من التكلف والتدرج يفيده بناء تفعُّل وأثر الإنذار تأثير خارجي، وأثر التدبُّرتأثر ذاتي، والإنذار لا يشعر النفس ما يشعرها التدبُّر من العهد المسؤول والأمانة الثقيلة.

أما الاتِّباع فهو ثمرة التدبُّر وهو الذي لا تتحقق الغايات التي يرمي إليها القرآن إلا به، وقد تكرر ذكره في القرآن في معارض شتّى تدلّ مُستعرضها على أنه هو سرّ التديُّن والتألّه. وأنه المحقق للكمال وأنه العاصم من الضلال والهلاك فليتدبر التالي هذه الأمثلة من الآيات القرآنية: ﴿اتبعوا ما أُنزل إليكم من ربّكم﴾[1]، ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه﴾[2]، ﴿فاتبعوني يحببكم اللّه﴾[3]، ﴿واتبع سبيل من أناب إلي﴾[4]، ﴿اتبعوا المرسلين﴾[5]، ﴿اتبعوا من لا يسألكم﴾[6]، ﴿فمن اتبع هداي فلا يضلّ ولا يشقى﴾[7]، ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها﴾[8]، ﴿واتبعت ملة آبائي﴾[9].

---

(1) الأعراف/ 3.
(2) الأنعام/153.
(3) آل عمران/31.
(4) لقمان / 15.
(5) يس / 20.
(6) يس / 21.
(7) طه/ 123.
(8) الجاثية / 18.
(9) يونس / 38.

ويا للعجب من بيان القرآن وبيانه وإعجازه بفنون إيجازه. إن الاتباع ضرب من قَفْوِ أثر الغير وترسم خطاه والانقياد له وجعل الهوى تبعًا للهوى مع اطمئنان بالمشاركة في النتيجة خيراً كانت أو شراً. وفي معناه من الهجنة أنه ينافي الاستقلال الفكري في الفكريات والذاتي في الذاتيات، فتجد القرآن يدفع عنك أثر هذه الهجنة العارضة فيأمرك بالتدبُّر واستعمال الحواس الظاهرة والباطنة في وظائفها الفطرية قبل أن يأمرك بالاتباع، حتى تطمئن إلى أنك إنما تتبع فيما فيه حَقّ وخير ورحمة، ثم إذا أمرك بالاتباع فإنما ذاك فيما يتعالى على فكرك إدراكه أو يصعب عليك تمييزه أو يخاف فيه غلبة الأهواء عليك. وبعد الأمر ينهى عن اتباع الهوى المضّل عن سبيل الحق، وعن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، وعن اتباع خطوات الشيطان، وعن اتباع أولياء من دون اللّه، وعن اتباع السبل المتفرقة، توكيداً للمعنى الإيجابي وإيضاحًا للحق الذي يجب أن يتبع.

إلا أن المتدبرين للقرآن لا يخرجون من هذا الاستعراض البديع إلا مؤمنين موقنين بأن الاتباع الذي يدعو إليه القرآن هو عين الاستقلال التام للفكر والإرادة والعقل والوجدان لأنه يحميها من شرور الأهواء ويؤويها إلى حمى الحق وحده والاحتماء بالحق الذي قامت به السموات والأرض واستقرّ عليه تدبير الكون ونظامه – استقلال ما وراءه استقلال.

﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل آتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون﴾[1].

هذا حق القرآن علينا يجب أن نتخذ الآيات المنبّهة عليه فواتح في المدارسة وأن تتجاوب أصداؤها في جوانب نفوسنا حتى لا ندخل حرمه إلا

---

(1) المؤمنون / 71.

بعد أن نكون عرفنا حقه. إنه لم يمض على المسلمين في تاريخهم الطويل عصر هم فيه أبعد عن القرآن منهم في هذا العصر، ولم يمض على الدعاة إلى الحق وقت عظمت فيه العهدة واستغلظ الميثاق مثل هذا الوقت، وإنه لا مخرج لهم من هذه العهدة ولا تحلل من هذا الميثاق إلا بالدعوة إلى القرآن. فلا عجب –ونحن نشعر بثقل هذه الأمانة– من أن ترتفع أصواتنا بالدعوة إليه. وإنما العجب الذي لا عجب بعده أن نسكت أو نقصر وإن من أحكم الوسائل لجذب الأمّة إلى القرآن، وصف القرآن، وتشويق الناس إلى الإقبال عليه وتدبّره وفهمه.

فمن التسديد في الرأي والمقاربة في العمل أن ترشد الأمّة الإسلامية إلى معرفة ما ضيّعت من خير وما خسرت من هداية، بتضييعها للقرآن وإنما تعرف ذلك ويبلغ مكامن الوجدان من نفوسها، من وصفه والإشادة بشأنه والتنويه بجلاله وخطره والتنبيه على ما يحتوي عليه من العلوم الكثيرة بألفاظ قليلة، وتقريب ما ينطوي عليه من المرامي المفيدة، بالكلمات القريبة، وشرح ما فيه من الحقائق المتفرقة بالجمل الجامعة، فإن ذلك يكون أدعى لرجوع النفوس الجامحة عنه إليه وأعون على فيأتها إلى حماه والاستظلال بظله والاستمساك بحبله.

وليت شعري، أي بيان يضطلع بهذا؟ إن وصف القرآن وأساليب التشويق إلى القرآن لا توجد على أكملها في غير القرآن، فلو أن البلغاء من كل أمة وفي كل جيل اجتمعوا على أن يصفوه ببعض ما وصف به نفسه. وكانت قلوبهم على قلب رجل واحد وألسنتهم على لسان رجل واحد لعجزوا وقعد بهم القصور دون الغاية من ذلك.

ولقد وصفه جماعة من الباحثين في إعجازه وأسراره، والمتكلمين على قصصه وأخباره والمنقّبين على مثلاته وعبره، والغائصين على نكت التناسب بين آيهِ وسوره. فجاءوا بما يشبه قصورهم الإنساني لا بما يشبه كماله الإلهي! ووصفه قبلهم أعداؤه اللد من مضغة الشيح والقيصوم أوصافًا منصفة فما بلغ هؤلاء ببلاغتهم ولا أؤلئك بإيمانهم وعلومهم غاية مما يريدون. وصفه الوليد بن المغيرة فقال: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وأن أعلاه لمثمر. فعبّر بهذا الوصف عن وجدانه النفسي وعن أثر القرآن في ذلك الوجدان. ولاتصال الشعور بالوجدان جاء هذا الوصف شعريًا كما ترى. وكأنه إنصاف منتزع من نفس جائرة، وإقرار مقتلع من سريرة حائرة.

ووصفه شرف الدين البوصيري وصفًا لا غاية بعده من كلام المخلوق في الروعة الشعرية وتمكن الاقتباس وصدق التمثيل فقال:

اللّه أكبر أن دين محمد	**وكتابه أقوى وأقوم قيلا**
طلعت به شمس الهداية للورى	**وأبى لها وصف الكمال أفولا**
والحق أبلج في شريعته التي	**جمعت فروعًا للهدى وأصولا**
لا تذكروا الكتْب السوالف عنده	**طلع الصباح فأطفئوا القنديلا**

ويا اللّه لهذا التمثيل المحكم في المصراع الأخير وما يحدثه في النفوس المفتونة بالمحسوسات.

إننا نعد من إعجاز القرآن في البلاغة ما هو شائع في جميع آياته من الدقة المتناهية في تحديد المعاني وتصوير الحقائق وتنزيل الألفاظ في مراتبها وتلوين الأساليب والتزاوج بين الصفتين أو الصفات حتى كأنهما صفة واحدة

كالقوي الأمين والغني الحميد، والحفيظ العليم، والعليم الحكيم. فليقصر الواصفون وليدعوا القرآن يصف نفسه بتلك الدقة العجيبة وذلك التصوير الرائع. وليسلك الدعاة سبيلهم إلى نفوس الناس بهذه الأوصاف الرائعة من هذه الآيات الجامعة، فإن ذلك أدعى إلى التأثير والتأثر وأبلغ في باب التشويق من كل تبويب في الكلام وتحبير وتزويق.

أين يقع كل ما وصفه به البشر من قوله تعالى: (**يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين**)[1]، وما في هذه الآية من جمع أصول الإصلاح التي جاء بها القرآن مرتبة في الذكر ترتيبها في الوجود.

وأين يقع كل ذلك من قوله تعالى: (**قد جاءكم من الله نور و كتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور**)[2]؟ اللهم لا..

كانت الأمّة العربية قبل الإسلام -ومثلها جميع الأمم- في جاهلية جهلاء.. فهي من الوجهة الفكرية في أحط الدرجات، ومن الوجهة الاجتماعية في أخس الحالات. وكانت لا تملك من أسباب النهضة إلا لسانًا قويمًا وفطرة غير معقدة. ولكن ماذا يغني اللسان الخصيب إذا كان يصدر عن فكر جديب؟ فجاءها الله بالقرآن وفيه كل ما كان الفكر العربي يتطلبه من العقائد النقية والحقائق العلمية، وكل ما كان اللسان العربي يصبو إليه من آفاق وميادين. فنهض العرب به وبلسانهم الذي نزل به وأنهضوا الأمم معهم، تلك

---

(1) يونس / 57.

(2) المائدة / 16.

النهضة التي زلزلت العالم الروحي العقلي فأذهبت مخارقه وثبتت حقائقه، وزلزلت العالم المادي فذهبت بطغيانه وشروره ورذائله وأقرّته على التشريع العادل والمعاملة الرحيمة. ثم لاءمت بين الروح والمادة بمعاني التوسط والاعتدال البادية في عقائد الإسلام وآدابه وأحكامه. وجاءت بالمعجزة الكونية الكبرى في تحقيق الحلم الإنساني بتلك الملاءمة وهي أمنية عجزت عن تحقيقها كل تعاليم الأرض، ولم تف بها تعاليم السماء قبل الإسلام لحكمة وأمر قد قدر.

وانساح الإسلام في الأرض يزجي جيوش الأخلاق قبل جيوش الخلائق، وبسط ظله على الأقطار الممتازة بخصوبة الأرض، وعلى الأمم الممتازة بخصوبة الفكر وزرع تعاليمه في عقول مستعدة، وأفاض عليها من روحه: إن الغاية في هذا الوجود سيادة في الحق وسيادة بالحق وأن لا سبيل إليهما إلا بالعلم والعمل وأن عمران الأرض متوقف على عمران العقول والنفوس. وبنى بذلك تلك الحضارة التي لا ينكرها إلا مكابر يماري في الشمس وضحاها.

إن الآفة الكبرى التي قضت على الحضارات وجعلت عاليها سافلها، هي التفرق بين بناتها والمستحفظين عليها، وقد كان للمسلمين – من بين الأمم القديمة والحديثة– معتصم باذخ لو اعتصموا به لوقاهم من التفرق فوقى حضارتهم من الانهيار. وهو القرآن ودينه الإسلام –نعمة خُصّوا بها دون الأمم.

كانت تعصف بهم من عواطف التفرق وتثور فيهم من طبائع الملك وغرائز المنافسة فيه ما أقله كاف في تدمير الممالك وتتبير الحضارات، فيرجعون إلى القرآن ويعتصمون بالإسلام فيجدون فيهما الوَزَر الواقي، إلى أن داخلتهم الأعراق المدسوسة، ومازجتهم الجراثيم الغريبة وابتلوا بلقاح سوء مما أفسد

من قبلهم وكان من تأثير ذلك أنهم انتقلوا من التفرق الذي يعصم منه الدين إلى التفرق في الدين نفسه وفي القرآن نفسه. ثم زهدوا في الدين فلم تبق إلا الصور العملية بلا روح. وزهدوا في القرآن إلا الألفاظ المتلوة بلا نذير، حتى كانت عاقبة أمرها خسراً، وذاقت السوء بما صدّت عن سبيل اللّه.

إن أسلافنا قاموا بما شرط عليهم القرآن في قوله: (**الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر**)[1]. فتحقق معهم وعد اللّه في القرآن: (**وعدّ اللّه الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدّلنهم من بعد خوفهم أمنا**)[2]. فكانوا خلفاء الأرض يقيمون فيها الحق والعدل وينشرون فيها الخير والرحمة ويطهرونها من الشرك والوثنية ويحققون حكمة اللّه بإقامة سننه الكونية والشرعية، لا يراهم اللّه إلا حيث يرضيه أن يراهم. لأن مما أفادهم القرآن استجلاء العبر من قوله تعالى: (**ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون**)[3] وقوله تعالى: (**وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم**)[4].

وقوله تعالى: (**أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم**)[5].

---

(1) الحج / 41.

(2) النور / 55.

(3) يونس / 14.

(4) الأنعام / 165.

(5) الأعراف / 100.

وكان هؤلاء السلف يعلمون لماذا أُنزل القرآن؟ ويعلمون أنه كتاب الدهر ودستور الحياة، وحجة اللّه الباقية إلى قيام الساعة وأنه واف كل الوفاء بإسعاد البشر في الحياتين، وأن عدم فهمه وعدم العمل به وعدم تحكيمه كل ذلك تعطيل له. ففهموه أولاً وحكموه في أهوائهم ونزعاتهم فاستأصل باطلها ولطف من نزواتها، ورجعوا إليه في فهم الحقائق الغامضة في الحياة والدقائق المشكلة في الكون والأخلاق التي يجب أن يتعايش بها الناس، فرجعوا إلى معصوم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقد انضوت تحت لوائه أمم مختلفة الأهواء والمنازع والفهوم، فوحّد أهواءها وقارب بين منازعها وفهومها ووفّق بين مصالحها، وهذه النقطة التي عجزت عنها التربية التعليمية والقوانين الوضعية إلى يومنا هذا.

يعتقد المسلمون كلّهم أن سلفهم كانوا أكمل إيمانًا من خلفهم وهذا صحيح، ولكنهم لا يبحثون عن علة كمال الإيمان في السلف حتى لكأنهم يعتقدون أن ذلك بوضع إلهي وتخصيص رباني لا يد للكسب فيه، وهذا خطأ فاحش وجهل فاضح.

وما دام الكلام في الإيمان، فهاته وانظر كيف فهمه السلف ومن أي معين استقوا فهمه ومن أي أفق استجلوا حقائقه. ثم انظر كيف فهمه الخلف ومن أين سقطت عليهم هذه الفهوم السخيفة. ثم أرجع كل معلول إلى علته بلا إجهاد للذهن ولا إنضاء للقريحة.

إن السلف تذرّعوا لفهم القرآن ذريعتين: الذوق العربي الصحيح، والسنة النبوية الصحيحة. وقد كانوا يؤمنون بأنه كل لا يتجزأ وأن بعضه يفسّر

بعضه وقد استعرضوه بعد فهمه بتلك الذرائع، فوجدوه يُعرِّف الإيمان بالصفات اللازمة والتي يتكون من مجموعها، فيقول: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) [1] ويقول: (إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربّهم يتوكّلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً)[2]. ويقول: (قد أفلح المؤمنون)[3] إلى آخرها. ويقول: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب)[4] إلى آخرها. ويقول: (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً)[5] إلى آخرها. ويقول غيرها من الآيات الجامعة لشعب الإيمان وخصاله وصفاته الذاتية، ثم وجدوه لا يذكر الإيمان في المعارض المختلفة إلا مقروناً بالعمل الصالح ففهموا من القرآن ما هو الإيمان وما هي الأعمال الصالحة، فآمنوا وعملوا الصالحات فكان إيمانهم أكمل إيمان بالعمل والكسب لا بشيء آخر من الخوارق والاختصاصات. وعلى هذا النحو فهموا العبادة وتوحيد الله وكمالاته المطلقة، والرسل ووظائفهم والملائكة إلخ...

أما الخلف فقد عدلوا عن هذا كله منذ صاروا يفهمون الإيمان من القواعد التعليمية وفقدوا الذوق والاسترشاد بالسنة.

---

(1) آل عمران / 15.
(2) الأنفال / 2.
(3) المؤمنون / 1
(4) البقرة / 177.
(5) الفرقان/63.

إن هذه القواعد الجافة التي لا صلة بينها وبين النفس إنما تنفع في الصناعات الدنيوية، أما في الدين فإنها لا تغني غناء وقد أفسدته منذ أصارها الناس عمدة في فهمه حتى ضعف إيمانهم وضعفت تبعًا له إرادتهم وأخلاقهم، وكيف يفلح من يعدل في تفهم الإيمان عن الآيات المتقدمة إلى قولهم إن الإيمان هو التصديق وإن النطق شرط أو شطر فيه وإن النسبة بين الإيمان والإسلام كذا إلى آخر القائمة؟ وكيف يكون مؤمنًا (حقًا) من يبني إيمانه على هذا الجرف الهاري؟

إن هذا موضوع واسع الجنبات وهو يتصل بباب أمراض المسلمين وأسبابها ولا تتسع هذه الكلمة لبعض القول فيه فكيف باستيعابه.

تدبر القرآن واتباعه هما فرق ما بين أول الأمّة وآخرها وإنه لفرق هائل، فعدم التدبر أفقدنا العلم، وعدم الاتباع أفقدنا العمل. وإننا لا ننتعش من هذه الكبوة إلا بالرجوع إلى فهم القرآن واتباعه. ولا نفلح حتى نؤمن ونعمل الصالحات. **﴿فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾**[1].

وإن هذه النهضة المباركة المنتشرة اليوم في الأقطار الإسلامية بشير خير بقرب رجوع المسلمين إلى هذه الهداية، لأن هذه النهضة بنيت أصولها على الدعوة إلى كتاب الله وتفهمه والعمل به. وقد كان من بواكير ثمار هذه النهضة في باب التأليف تفسير الإمام النقاد محمد الألوسي على ما فيه من تشدد في المذهبية. وتفسير الأمير صديق حسن خان، ثم جاء إمام النهضة بلا منازع وفارس الحلبة بلا مدافع الأستاذ الإمام محمد عبده فجلا بدروسه في تفسير كتاب الله عن حقائقه التي حام حولها من سبقه ولم يقع عليها. وكانت تلك

---

(1) الأعراف / 157.

الدروس آية على أن القرآن لا يفسر إلا بلسانين لسان العرب ولسان الزمان... وبه وبشيخه جمال الدين، استحكمت هذه النهضة واستمر مريرها. ثم جاء الشيخ محمد رشيد رضا جارياً على ذلك النهج الذي نهجه محمد عبده في تفسير القرآن. كما جاء شارحا لآرائه وحكمته وفلسفته في الدين والأخلاق والاجتماع. ثم جاء أخونا وصديقنا الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس قائد تلك النهضة بالجزائر بتفسيره لكلام اللّه على تلك الطريقة وهو ممن لا يقصر عمن ذكرناهم في استكمال وسائلها من ملكة بيانية راسخة وسعة اطلاع على السنة وتفقه فيها وغوص على أسرارها وإحاطة وباع مديد في علم الاجتماع البشري وعوارضه. وإلمام بمنتجات العقول ومستحدثات الاختراع ومستجدات العمران يمد ذلك كله قوة خطابية قليلة النظير. وقلم كاتب -لا تفل له شباة.

بارك اللّه في عمر الأستاذ فأتمّ تفسير كتاب اللّه ببيانه المشرق في خمس وعشرين سنةً من غير أن تختل أعماله العلمية الكثيرة ولا أعماله المستغرقة لدقائقه في سبيل هذه النهضة. وعرفت الأمّة الجزائرية قيمة ما أتمّ اللّه على يد الأستاذ فاحتفلت بهذا الختم كأعظم ما تحتفل أمّة ناهضة بأثر ناجح من آثار جهودها. وكان من الإحسان في هذا العمل العظيم ومن الإحسان للنهضة أن تسجل من هذا الاحتفال صورة منبهة على حقيقته، فصدر هذا العدد من «الشهاب» وهو لسان حال هذه النهضة، خاصاً بهذه المنقبة مخلداً لهذا الأثر، مسجلاً لبعض أوصافه وما قيل فيه.

ونحن بما لنا من الصلة الوثيقة بهذه النهضة ومن العمل النزر فيها نغتبط بهذه الخطوة السديدة وهذه المرحلة الجديدة التي تمّت بختم التفسير، ونرجو أن تكون في المرحلة الثانية أوسع مدى في الهداية وأكثر حظًا من التوفيق. ونهنئ أخانا الأستاذ بما خصّه اللّه به من التوفيق في خدمة دينه ولغته وأمته.

3- كلمة في الاحتفالات وتصوير وصفي للاحتفال العظيم بختم القرآن العظيم(*)

الاحتفالات -بنظامها العصري- مجامع مفيدة من جميع جهاتها، لجميع روّادها. فهي بالنظر العام أدوات تعارف وتواصل ربط بين من لم تتهيأ لهم أسباب الاجتماع إلا في هذه الاحتفالات. وأسواق بضائعها الخطب والمراجعات القولية، وأرباحها الإيجابية آداب الاجتماع. وتلاقح الأفكار، واقتباس الكلمات واستيقاظ الهمم. واستعجال الآراء وانتشال التفكير من المستوى العامي الغث وصقل الأذهان، وتمكّن مجموعة من الملكات منها ملكة استعراض الآراء وملكة استجماع الخواطر، وأرباحها السلبية زوال الدهشة من لقاء الناس والاستيحاش منهم وغشية الاضطراب والارتباك. والبرء من آفة العي والحصر. وهي -لعمرك- نقائص حظ مجتمعنا -على الخصوص- منها عظيم.

وهي للدعاة ميادين دعاية يجدون فيها متسعًا رحبًا لنشر آرائهم بدون كلفة وبدون نفقة لأنها تحشد لهم طبقات من الناس ما كانوا ليستطيعوا جمعها.

وهي للمرشدين والمربّين الاجتماعيين فرص لبث الإرشاد بين الجمهور وتوجيهه للخير والمنفعة.

(*) «الشهاب»، الجزء الرابع، المجلد الرابع عشر، جوان – جويلية 1938، ص 168.

وهي للخطباء وأصحاب اللَسن ذرائع تمرين وارتياض على الكلام وتوسّع في وجوه القول وتمرّس بمكافحة الجموع، وهذه كلها فوائد لا يُستهان بها في باب التربية.

إن هذه الاحتفالات بمثابة دروس تطبيقية معظم تلامذتها من الدهماء الذين حرموا المدارس والدروس النظامية. وإذا كان هذا الصنف كثيراً في الأمم فمن الرحمة به وحسن الرعية له ومن الحكمة في استصلاحه وتربيته أن يوسّع له في هذه الاحتفالات ويكثر له منها وأن تبتكر له المناسبات لإقامتها.

وإن أكثر الناس استفادة من الاحتفالات وأبلغهم إفادة فيها وأثقلهم عهداً في توجيهها إلى الصالح النافع أو إلى الفاسد الضار، هم الخطباء؛ فعليهم وحدهم يتوقف إصلاحها أو إفسادها، وليست خصوصية الأسباب ولا تحديد النظم بمانعة للخطباء من بلوغ غرضهم ما دام باب المناسبات والاستطرادات واسعاً رحب الجوانب، وما دام وجود الخطباء في الاحتفال جزءاً ضرورياً بحيث لو خلا من عنصرهم –في هذا العصر– احتفال لكان زردة متمدنة مظلومة في اسمها، فوجودهم هو الفارقِ الجوهري بين مسمّى (احتفال) ومسمّى (زردة).

• • •

تتفاوت الاحتفالات بتفاوتها في سمو المعاني التي تقام لأجلها، فبقدر سمو السبب وعموميته تكون قيمة الاحتفال، ثم تنزل تلك القيمة وترخص كلما تفه السبب أو خصّ حتى تصل إلى درجة الساقط الذي لا وزن له. ولا يدخل في هذا الباب إلا بضرب من التوسع والتساهل. فأسمى هذه الأسباب ما يذكر الجمهور بأمجاده التاريخية ومفاخره القومية وفيه نخوة أماتها الضيم، وفحولة قضى عليها التأنث، وذكرى أخنت عليها الغفلة والنسيان، وأصالة

خَبَّثَتْها الأعراق الدسيسة، وعزيمة أطفأتها طباع الضعف والفسولة، وأريحية غطى عليها اللؤم المخزي والشح المطاع، وشواعر خدرتها تهدئة الدخيل وزمزمة الحاوي وهينمة الواغل...

ثم ما يجلو عليه حقيقة دينية أو علمية غشيتها الأوهام والخرافات. ثم ما يحقق له مصلحة في الحياة كانت مجهولة أو حقًا فيها كان ضائعًا. ثم ما يكشف له عن وجوه الإصلاح الاجتماعي ليعلموا له، وعن وجوه الفساد فيه ليتقوه.

ثم... لا ثم ...

هذا من من جهة الأسباب والبواعث. فأما من جهة الأشكال والصور فأعلى ما فيها أن ينساق إليها الجمهور بسائق وجداني، وأخسّ ما فيها أن يساق إليها سوقًا، أو أن يخدع فيها عن وجدانه بالمرغبات الخادعة.

• • •

لكل أمّة أسباب طارئة وبواعث تاريخية تدعوها إلى إقامة الاحتفالات. وقد تنبهت الأمم الحية إلى ما فيها من الفوائد فجعلت الاحتفال بها جزءاً من حياتها ومادة من قوانينها الاجتماعية. وإن الأمّة الإسلامية لأغنى الأمم من هذه البواعث التاريخية وكلها من ذلك الطراز العالي الذي أشرنا إليه. ومعظمها بواعث دورية يفضي الباعث منها إلى باعث فلا تفتأ الأمّة مستعرضة ماضيها كله ولا تزال في غمرة من المنبهات المنعشة.

عندنا معشر المسلمين ليلة الميلاد النبوي وعندنا يوم الهجرة ورأس السنة الهجرية ويوم بدر ويوم أحد يوم فتح مكة وغير ذلك من الأحداث التي وقعت في عهد النبوّة، ولكل واحد من هذه الأحداث مغزى سام وأثر بالغ في

تاريخنا، وهلم إلى ما بعد من الوقائع الشهيرة الفاصلة حتى تنتهي إلى فتح صقلية ومواقع الحروب الصليبية وفتح القسطنطينية، وهلم ما يخصنا معشر الأفارقة كبناء القيروان واستواء طارق على الجبل، وهلم ما تقتضيه المناسبات في بعض الأوقات كفتح خيبر ودخول عمر لبيت المقدس. وتعال إلى القوّاد والفاتحين والأجواد والعلماء والحكماء والفلاسفة والشعراء –ولا تعد من الدر إلا كباره– تجد ما زخرفه التاريخ وفاضت به العصور. ومع هذه المفاخر فقلّ أن تجد قطراً إسلامياً سنّ أهله سنّة صالحة في إحياء هذه الذكريات وإحياء الأمّة بها، إلا في القليل المشوّه الذي لا ينقع غلة ولا يصيب مرمى.

إن غفلتنا عن إحياء ذكريات أمجادنا التاريخية هي التي أزهقت في الأمم الإسلامية روح التأسّي فأفقرتها من الرجال وجعلت تاريخها الحديث خلواً من المثل العليا، حتى اندسّ هذا العرق الخبيث في آدابنا فترانا إذا التمسنا مثلاً في الجود، طوينا تاريخ الإسلام كله كأنه صفحة مغسولة، وجئنا من العصر الجاهلي بحاتم وقل مثل ذلك في عنترة والسموأل. فإذا قصرنا الخطو وقاربنا النجعة، وقفنا عند العصر الأول للإسلام. فهل خلت العصور التي بعدهم من مثل كاملة ومن مفاخر خالدة؟ لا. فقد تأسّى عصر بعصر وجيل بجيل، فجاءت عصور زاهرة وأجيال عامرة. فلما جهل التاريخ وانقطعت العلائق الواصلة بين عصوره، ضعفت روح التأسّي ثم تلاشت، وصرنا إلى هذا الفقر الشائن في المثل، وهذا الخواء المزري في التاريخ.

وقد زادتنا أضاليل الغاشين إمعاناً في الغفلة وإغراقاً في الركود. ففقهاء هذه العصور الجرداء يعدّون التاريخ علماً لا ينفع وجهالة لا تضرّ، والأجانب يعيّروننا بأننا أمّة تعيش في الماضي ويغشّون سفهاءنا في معرض التنصح

بأمثال هذه الكلمات ليًا بألسنتهم وتزهيداً في هذا الماضي زيادة على زهدنا فيه. وهم يعلمون أننا نعيش بلا حاضر. ويوجسون خيفة من أن يلمّ بنا طيف من ذلك الماضي الزاهر فنبني عليه حاضراً من جنسه أكمل منه.

ألا إنهم –من إفكهم– ليقولون: دعوا ماضيكم، فهل تركوا هم ماضيهم؟ إننا نراهم أحرص الناس على الاعتداد به والاستمداد منه والامتداد معه إلى عصور الخرافات والأساطير.

وما لنا وللغاش والناصح! إن لنا لماضياً عبقريًا حسدتنا عليه الأمم التوالي، بعد أن جرضت به الأمم الخوالي. فمن مصلحتنا وحدنا أن نحيي ذكرياته في نفوسنا وأن نستمد منه قوة لأرواحنا وأن نربّي ناشئتنا على احتذاء مثله وعبقرياته. وإن إقامة الاحتفالات لتلك البواعث لطريق قاصد إلى ما نريد من ذلك.

• • •

سنت مجلة «الرسالة» الغرّاء نوعًا من الاحتفاء ببعض هذه البواعث، فجرت على إصدار عدد ممتاز للسنة الهجرية، وجلا كتّابها الكرام علينا عبراً كانت مخبوءة، وأثاروا في نفوسنا ذكريات كانت منسية. ورأينا من بركات هذه السنّة التي سنّها الأستاذ الزيّات –أمتع اللّه به– أن أقلاماً عربية متينة كانت متنكرة للإسلام وتاريخه تعفّر وجههما الصبوح بالغبار وتمجّ في مشرعهما الصافي السمام المنقع، وقد أصبحت تفتن في إباة حقائقهما وإظهار معالمهما بما أوتيت من قوة بيان ونصاعة برهان، ثم كتب الأستاذ صاحب الرسالة مرّة أو مرّتين –لا أذكر– في ذكرى يوم بدر، وكأنه –حفظه اللّه– يريد بهذا الصنيع أن يجعله منبهة للأمم الإسلامية إلى ما وراءه من خير، ولكن لم يكن على منهاجه إلا القليل.

ومنذ سنوات احتفلت عصابة من أحياء القلوب والشواعر بموقعة حطين، وهي من المواقع الفاصلة في الحروب الصليبية ومن الصفحات المشرقة في تاريخ صلاح الدين، وتكلم فيها جماعة من رجال الإسلام، ونشرت كلماتهم في كتيّب وقرأناه، فإذا هو احتفال يثير رواكد الهمم، ويكاد ينفخ الحياة في الرمم، ولقد –واللّه– أشجاني وأبكاني، وما زال يشجيني ويبكيني كلما ذكرته، قول صديقنا الأستاذ خير الدين الزركلي في أنشودة حطين:

لكل أمر حيـــــــن ... خل البكـــا حينـــا

هاتي صـــلاح الديـــن ... ثانيــــة فينــــــا

الشـــامـخ العرنين ... عـــزا وتمكينـــــا

وجددي حطيــــــن ... أو شبـــه حطيـــنـا

لك اللّه أيها الشاعر. وهل يأتيك بصلاح الدين إلا أمّتك؟ وهل يجدّد لك حطين إلا قومك الذين بدأوها؟ ولكن، هل أمّتك مستعدة لأن تأتيك بصلاح الدين مرّة أخرى؟ وهل قومك أهل لأن يجدّدوا موقعة حطين وفيهم أمثال عبد اللّه...؟

قد خلـت الآجـــام ... من رابـض فيـــها

أحي في أمتّك وقومك خلق التأسّي بمن قلت فيـه:

فصـاح: لا عـــدوان ... لا بغـي لا إرهـــاق

قد فرض الإيمـــان ... مكـــارم الأخـــلاق

وأنا الضمين بأنهما يأتيانك بجمع من صلاح الدين، ويجدّدان لك حطين، وأشباه حطين.

لا يزيد للمسلمين أن يعكفوا على تلك الاحتفالات المولدية الشائعة التي يقتصر فيها على تلاوة القصص المشوّهة، فإن ذلك الطراز لا يتفق مع شرف الذكرى وجلالها. وإن القصص المولدية الحشوية، والخطب المنبرية الرائجة هما سبب تنويم هذه الأمّة وأصل بلائها.

ولا أن نعكف على ذلك النوع الشائع في مصر كمولدي البدوي والرفاعي وغيرهما، فإن ذلك النوع –زيادة على إفساده للدين والأخلاق– لا يثير في النفوس ذكريات ماجدة ولا معاني شريفة وإنما يمكّن فيها للتخريف والدجل.

ولا ذلك النوع الشائع في الأوساط الشيعية من احتفالهم يوم عاشوراء بذكرى مقتل الحسين –عليه السلام– فإنه فضلاً عما يقع فيه من المنكرات المخجلة، لا يثير إلا الحفائظ والإحن ولا يثمر إلا توسيع شقة الخلاف، ولقد حضرت احتفالهم مرّة واحدة بدمشق في تربة تُعرف بأرسلان، فعجبت كيف تصدر تلك الشناعات من مسلم، وعلمت لأول مرّة: إلى أي حدّ ينتهي التعصّب والغلوّ، ثم ذاكرت عالم الشيعة بدمشق الشيخ عبد المحسن العاملي وهو عالم فاضل أديب معتدل في ذلك، فأنكر ما أنكرت بالقول، واعتذر عن الإنكار بما فوق ذلك بما يعتذر به علماء الدين في كل مكان.

لا نرضى للمسلمين بهذا الطراز البالي من الاحتفالات التي ذكرنا بعض أنواعها، فقد عكفوا عليها قروناً، فما زادتهم إلا خبالاً وانحطاطاً، وإنما نريد منهم محوها واستبدالها بما هو خير.

وقد تتابع السواد الأعظم من إخواننا المصريين في هذا النوع السخيف مثل ما تتابع الفريق المثقف منهم في تقليد الغربيين في هذا الباب بلا تحفّظ

ولا استمساك، فبينما سواد الأمّة وعديدها الأكثر، عاكف على الأضرحة، يقيم حولها احتفالات الموالد ويرجو منها الإمداد وعلماء الدين يمدّونهم في الغيّ بسكوتهم، ومشيخة الأزهر تزكي أعمالهم بتقبيل شيخها لمقود جمل المحمل. نرى الطرف الآخر يتهالك على تقليد الغربيين في ولائمهم واحتفالاتهم السخيفة بالتوافه والسفاسف ويستهتر في هذا التقليد حتى تطغى احتفالات الغرب الدينية والقومية حتى على المواسم الشرقية الدينية، وهذه جرائدهم ومجلاتهم تشهد –في ضجر وعتب أو في رضى وإعتاب– بأن هذه الطائفة، وهم عمار الحواضر يحيون ليلة الميلاد المسيحي وعيد رأس السنة المسيحية ولا يأبهون لعيد الفطر ولعيد الأضحى.

ولعمري إن هذا لهو الاستعمار الروحي الذي لا يُعدّ الاستعمار المادي معه شيئًا مذكورًا!

أو لم يكن لهم آية أن شوقي –رحمه الله– يقول على لسان كليوباطرة ملكة مصر، تخاطب خدم قصرها:

لا تسيـــروا على ولائـم رومـــا سرفًا في الفســوق واستهتـــارا
مصر إن أولمت سمت بالأغاني درجــات وأسمـــت الأشعـــارا

فهذه كليوباطرة وهي كما يقولون: أنثى أفنت العمر في الهوى. أنفت (أو أنف لها شوقي) أن تسير ولائمها على ولائم روما. فلئن كان هذا الكلام مما ألم معناه بخاطر كليوباطرة وجرى لفظه على لسانها فهي أصدق وطنية وأنبل نزعة من هؤلاء المقلّدين، وإن كان إنما تخيّلها شوقي كذلك فما أراد إلا عظة هؤلاء وما عنى إلا إياهم وما وجّه الخطاب إلا إليهم، وليس شيء من ذلك بمستنكر على شوقي.

ويا ليت إخواننا هؤلاء استبدلوا غربًا بغرب فقلّدونا نحن –مادام التقليد مبلغ جهدهم– في كثير من هذه المعاني التي يقلّدون فيها الغربيين، ألسنا مغاربة؟ ألسنا أحق باسم الغرب بالنسبة إلى مصر؟ وإما أوروبا شمالي مصر. وقد شرع لهم حافظ هذه التسمية في قوله:

وَدَعونا نشم ريح الشمال

أم يقولون: إننا برابرة ومتوحشون: فنعم وكرامة عين. ولكننا مع ذلك شداد في الاستمساك بحبال الشرقية في كثير من مناحي الحياة. ولقد صاحبنا الاستعمار أكثر من قرن فما استطاع لنا هضماً.

خالفنا الاتجاه قليلاً ولمسنا ببعض العتب علاقة عزيزة علينا، وعزيزاً علينا أن نراها مسرفة في التقليد، غالية في المتابعة على غير هدى على حين نأتم بها ونعدها لإمامة الشرق كله، فلهنأ إخواننا أننا تلامذتهم، ولكن في غير ما هم فيه تلامذة الغرب...

• • •

لم تعرف الجزائر في ماضيها من الاحتفالات إلا تلك الصور العادية الساذجة في العيدين الدينيين، وإلا الزرد الموسمية في بعض الجهات، وإلا نوعًا آخر هو أقرب إلى الاحتفال المنظّم لو خلا من المحظورات الدينية. وحلا بالمشارب القومية والفوائد الاجتماعية. والعامة تُطلق على هذا النوع اسم «الأركاب» وهم يعنون جمع ركب بسكون الكاف كأركاب خالد ابن سنان بصحراء بسكرة، وركب عامر لقبر عطية قرب قلعة بني حماد، وركب قسنطينة لقبر ابن عبد الرحمن بالجزائر، وركب البليدة لقبر الشيخ أبي مدين بتلمسان، وكلها من شدّ الرحال غير المشروع، وكلها قريبة من النوع الذي نعيناه على المصريين وإن كانت أقلّ منه فساداً أو إفساداً.

وعرفت الحواضر الجزائرية شبه احتفال بالمولد النبوي، يقتصر فيه على التجمير والتقصير وتلاوة قصة من القصص الحشوية الشائعة. ولقد حضرت -منذ سنوات- حفلة مولدية من هذا النوع بحاضرة الجزائر، وسمعت عالماً أزهريًّا يقرأ على الناس قصّة مولدية -لعلها مولدية المناوي- فسمعت من بعض ما كان يقول قوله: إن النبي ﷺ كان يرى من أمام كما يرى من خلف بعينين خلقهما اللّه في قفاه... وكان بجنبي فقيه مقرئ، خفيف الروح، سلفي النزعة، فتغامزنا بالإنكار ولم نستطع جهرة إذ كان ذلك قبل انتشار الحركة الإصلاحية، ثم أسر إليّ على سبيل الدعابة قوله: أبى اللّه إلا أن نكون أسبق منكم

لكل شيء فعندنا من هذه (الماركة) من العلماء من يقول ويكتب: إن النبي ﷺ لم يولد من السبيل المعتاد...

ولبثت الجزائر محرومة من هذا النوع المفيد الذي يغرس المعاني السامية في النفوس بأسبابه وبواعثه، ويزرع المبادئ العالية والمعارف والآداب في العقول بما يقال فيه إلى أن كان عهدها الأخير وكانت نهضتها العلمية الدينية. فلأوائل هذه النهضة شعرت بما للاحتفالات من أثر صالح في النهضات، فالتفتت إليها وجعلتها إحدى ذرائعها لتعضيد الأعمال والمشاريع ونشر المبادئ الصالحة وبث الأفكار النافعة، وترقت بها مع الزمن حيث النظام واختيار المناسبات حتى أصبحت تنافس أرقى ما عُرف من نوعها عند الأمم الأخرى.

• • •

لعل أروع احتفال شهدته الجزائر في عهدها هذا هو الاحتفال بفتح مدرسة «دار الحديث» بتلمسان في أواخر شهر سبتمبر من السنة الخالية، فقد كان بدعًا من الاحتفالات في نظامه. وفي ضخامة العمل الباعث عليه، وفي جلال المناسبة والذكرى، وفي احتشاد الأمّة له، وفي علوّ الطبقة التي شهدته وتكلّمت فيه من العلماء والشعراء، وقد وصفته الجرائد في حينه، وإنما جلبته هنا مناسبة الحديث عن الاحتفالات.

ثم جاء الاحتفال بختم الأستاذعبد الحميد بن باديس لدروس التفسير بالجامع الأخضر بقسنطينة -وهو الذي ألهمنا كتابة هذه الكلمة- فكان شاهداً لما ذكرناه قريبًا من تطور هذه الأمّة في هذه الناحية، ودليلاً على أن نظام الاحتفالات بلغ في هذا القطر كماله، وعلى أن روح التأسّي في الصالحات حييت في هذه الأمّة وانتعشت، وأنها أصبحت تهتبل الفرص المواتية فتحسن الاختيار.

أذكر أننا كنا في جماعة من الرفقاء الأوفياء، تذاكرنا مرّة في إقامة حفلة تكريم لرفيقنا الأستاذ بن باديس تنويهًا ببعض حقه على العلم وشكرًا لأعماله الجليلة وآثاره الحميدة في التعليم بهذا الوطن، واعترافًا بكونه واضع أسس النهضة. وإنصافا لكونه أسبقنا إلى التعليم وأشدّنا اضطلاعًا به وأكثرنا إنتاجًا وتخريجًا فيه... وذهبنا في تقدير الفوائد التي تُجنى من هذا الاحتفال مذاهب لا غلوّ فيها ولا إسراف. ثم فاتحنا أخانا الأستاذ بهذه الفكرة، فكان الجواب قوله: دعوا هذا حتى تختم دروس التفسير -وبيننا يومئذ وبين الختم سنوات- كأنه يرى أن عمله في التفسير هو أجلّ أعماله في التعليم، وأنه بإتمامه لهذا العمل يستكمل مزية الاستحقاق للتكريم والإجلال من أمّته إذ

يكون قدّم لها عملاً تاماً ناضجاً وصورة كاملة من مجهوداته زيادة على ما خرج لها من رجال... كأنه –حفظه اللّه– كان معلّق البال بهذا العمل ويخشى أن تقطعه قواطع الدّهر.

وأراد اللّه، فحقّق للأستاذ أمنيته من ختم التفسير وللأمّة رجاءها في تسجيل هذه المفخرة للجزائر، ولأنصار السلفية غرضهم من تثبيت أركانها بمدارسة كتاب اللّه كاملاً. وبدت مَخايِل الختم من أواخر السنة الخالية فكثر الحديث في الأسمار وفي المنتديات عن الاحتفال وصوّرت منه الخواطر احتفالاً ملء الأمل. وكذلك كان. والحمد للّه.

تألّفت لجنة تنظيم بمركز الاحتفال «قسنطينة» وأعدّت للاحتفال برنامجًا محيطًا محكمًا وجعلت شعاره كله (القرآن) فالوفود وفود القرآن والضيوف ضيوف القرآن، وأذاعت توقيت الاحتفال باليومين الرابع والخامس من شهر ربيع الثاني، ثم عدلت عنهما إلى الثاني عشر والثالث عشر منه لعوارض قاهرة لا يملك معها الخيار. وأضرّ تأخير ذلك الأسبوع بطوائف من الأمّة كانت تسابق بالاحتفال أشغال الصيف وتكاليف الفلاحة، وهي تكاليف لا يملك معها الخيار أيضا..

انهالت الوفود القريبة الدار على قسنطينة يوم الجمعة وتلاحقت الأمداد يوم السبت، وشعر الناس شعوراً عامًا أن الجامع الأخضر لا يسع الوافدين إذا انهال سيلهم، وأن محلاً ما من المحلات العامة لا يسعهم أيضًا. فألهموا من غير تواطؤ، العمل بقاعدة التمثيل فأرسلت كل بلدة وفداً محدود العدد يمثّلها، فلم تبق بلدة من عمالة قسنطينة كبيرة أو صغيرة إلا ومثّلها وفد في مهرجان القرآن، فرأينا هناك وفود البلدان الساحلية من بجاية إلى الحدود

التونسية ووفود مناطق التلول من سطيف إلى سوق أهراس ووفود المناطق الصحراوية من بسكرة إلى سوف. وتكاملت عقود هذه الوفود بوفد عاصمة الجزائر الضخم المؤلّف من مائة وثلاثين شخصًا، ثم وفد تلمسان وهو أقصى الوفود دارًا عن قسنطينة، فبينهما ما يزيد عن ألف ميل، ولكن جاذبية القرآن هوّنت عليه النصب واللغوب.

رأى الوفد التلمساني أن يقطع الطريق من الجزائر إلى قسنطينة في سيارة أوتوبيس ذات أربعين مقعداً ليجمع بين الفائدة والنزهة وعمل بالاتفاق مع الوفد الجزائري على أن يخرج الوفدان من الجزائر معًا ويدخلا قسنطينة مساء السبت معًا.

وبلغ أهالي سطيف أن الوفدين يمرّان ببلدتهم فأبى عليهم كرمهم إلا أن يقيموا لهما حفلة شاي فاخرة. وأرسلوا للوفدين استدعاءً مع رسول خاص، مبالغة منهم في البر والاحتفاء. وخرج الوفدان من العاصمة على الساعة السادسة من صباح السبت في قطار من السيارات الضخمة يتكوّن منها منظر ساحر خلاّب ووصلوا سطيف على الثالثة بعد الزوال، فتلقّاهم إخوانهم السطيفيون على بضعة أميال من المدينة بباقات الزهر وطيب التحية، واجتمع الجميع على مائدة الشاي الحافلة.

ثم استقلّ قسم من وفد سطيف سيارة ذات خمسين مقعداً، وخرج الجميع آمّين قسنطينة، وقد زاد الموكب كمالاً وجمالاً.

خرج أعضاء لجنة الاحتفال من قسنطينة في بضع سيارات للقاء موكب الوفود على خمسة وعشرين ميلاً إبلاغًا في المبرّة، فتهلّلت الأسارير عند اللقاء وطفحت الوجوه بالبشر وانطلقت الألسنة بالتحيات المباركات وتصافحت

القلوب قبل أن تتصافح الأيدي وامتزج شماس الأصيل بشعاع الوجوه المستبشرة، فكان منظرًا سحريًا أخّاذًا لا يستقل بوصفه إلا شاعر، ولست بشاعر. ثم انتظمت السيارات موكبًا بديعًا وزحفت إلى قسنطينة فدخلتها بعد المغرب وليس وصف مشهد دخول هذا الموكب إلى قسنطينة وانغماس الضيوف والمضيفين في غمرة من نشوة الفرح البالغ إلى حدّ الذهول بالذي يسعه بياني وإن وسعه إدراكي وعياني.

اجتمعت وفود الغرب بوفود الشرق في مدرسة التربية والتعليم التي أعدّت مكاتبها وطبقاتها وقاعاتها لهم أحسن إعداد. وبعد أداء فريضة العشاء انصرفوا إلى موائد المضيفين على تقسيم عجيب ومزج غريب يرجع الفضل والشكر فيه إلى لجنة الاحتفال.

وقد تبارى كرام القسنطينيين -أحسن اللّه إليهم- في إكرام الوافدين وهزّتهم الأريحية هزّةً بعد العهد بمثلها، وتجلّت الضيافة العربية الباذخة في أجلى صورها، يزينها نظام دقيق دفع هجنة الفوضى ووصمة الاختلال التي تصاحب الاحتشاد والكثرة. فلم يتخلف مضيف عن ميعاد، ولم تختل لضيف وجبة، ولم يفترق للمجتمعين في منزل شمل. وتضاعفت الوفود صباح الأحد، فتضاعفت الحفاوة والبشر وتجلّى الاستعداد الهائل واتسعت الصدور فاتسعت المنازل وتنوّعت صنوف البر حتى وسعت تلك الوفود الزاخرة سكنًا مرفهًا وأكلاً مترفًا في أيام الاحتفال ولياليها. وارتفعت الكلف بين كل نزيل وأبي مثواه حتى لتحسبهم إخوةً رحم أو عشراء دهر.

ثم تلطفوا فخصّوا الوفود التي لم تسبق لها زيارة قسنطينة، بنوع من التكريم وهو الطواف بهم في أوقات الفراغ على معالمها وقناطرها العجيبة

وواديها المدهش ومناظرها الساحرة وغمروهم بفيض من الرقة واللطف أسرت ألبابهم وانطقتهم ببليغ الشكر فانقلبوا إلى أهلهم يحملون الإعجاب والإكبار ويضمرون المحبة الصادقة والولاء المحض.

هذه هي الاجتماعات التي كنا ننشدها فلا نجدها، هذه الاجتماعات التي تثمر التعرّف الحقيقي وتجمع أفراد الأمّة على الدين والخير والعلم. وقد زادها إخواننا القسنطينيون تمكيناً وشرعوا من آداب الضيافة مناهج سيحتذيها المترسمون ويذكرونها لهم بالجميل.

وما ظنّ الذين يفترون علينا الكذب ويتقوّلون علينا الأقاويل؟ أفي مثل هذا الاحتفال من أعمالنا شائبة نقد أو رائحة إضرار بأحد؟

• • •

كان من المتوقع -على بعد- أن تسمح الإدارة بوقوع الختم في الجامع الأعظم لاتساعه لأضعاف ما يتسع له الجامع الأخضر -وقد طلب منها ذلك واتخذت وسائله- فأبت، فما كان من لجنة الاحتفال وكرام القسنطينيين إلا أن قرّروا أن يفسحوا في المجالس للوافدين وأن لا يزاحموهم في مقاعد الجامع الأخضر ساعة الدرس، ونفّذوا هذه الخطة على أن تكون مكافأتهم من الأستاذ إعادة درس الختم في ليلة أخرى بعد انحسار الوفود عن قسنطينة.

وما كادت تشرق شمس يوم الأحد حتى اكتظّ الجامع الأخضر بالوفود، فلم يبق فيه متنفس وشمل الخشوع تلك الصفوف المتراصّة حتى لا حركة ولا ضوضاء. وتجلّى جلال كلام اللّه في بيت اللّه فكان مشهداً يستنزل الرحمات، ويتكفّل باستجابة الدعوات. وصعد الأستاذ المفسّر منبر الدرس فشخصت العيون وخفتت الأنفاس واستهلّ بتلاوة المعوذتين. وشرع في تفسيرهما بما

هو معهود منه، فلا يحتاج إلى نعت ولا إلى إطراء (وقد نشر ملخص الدرس في هذا العدد).

استغرق الدرس ما يقرب من ساعة ونصف أخذ الناس فيها على نفوسهم، وجلّلتهم سحابة من الخشية والسكينة. وكذلك المؤمنون الذين يخشون ربّهم بالغيب تقشعّر جلودهم عند سماع كلامه، ثم تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله.

وختم الأستاذ المفسّر الدرس بأدعية قرآنية وابتهالات مأثورة، ثم طلب من الحاضرين أن يسألوا اللّه الرحمة والمغفرة لأخيهم حسين باي، مؤسّس الجامع الأخضر ومحبسه في سبيل العلم وإقام الصلاة وذكر اللّه كما هو منقوش على رخامة في المسجد. وذكر أن من علامات إخلاص هذا الرجل في عمله وحسن نيّته أن يسّر اللّه ختم تفسير كلامه من أوله إلى آخره في مدة خمسة وعشرين عامًا بهذا المسجد، فانطلقت الألسنة بالدعاء والترحّم وافترقوا على مثل ما اجتمعوا عليه بقلوب خاشعة ونفوس متراحمة وألسنة رطبة بحمد اللّه وشكره على ما وفّق إليه من الخير وأعان.

وكان هذا اليوم مقصوراً على درس التفسير، حرصاً على كلام اللّه أن يستقل تأثيره بالنفوس وأسره للأفئدة، وعلى عظاته أن تتصل بشغف القلوب. وخصّ سائر اليوم لاستراحة الوافدين ووقوفهم على معالم المدينة ومناظرها بعد أن أذنت لجنة الاحتفال فيهم باحتفالات الغد وأعماله.

• • •

كان يوم الاثنين الموالي ليوم الختم موعداً لإقامة حفلة تكريم للأستاذ المفسّر، وهي الحفلة التي سبقت الإشارة إليها في كلامنا. وكان لها حظ من

تصميمنا واعتزامنا، فسخَّر اللّه أسبابها في هذا اليوم. وقد تلطفت لجنة الاحتفال فأسندت رئاستها إلى كاتب هذه السطور. وكان موضع الاحتفال قاعة « كليّة الشعب » الفسيحة.

أهطعت الوفود إلى كليّة الشعب قبل الساعة المقرّرة بساعات ولم يثنهم طول الانتظار ولا اكتظاظ القاعة حرصًا على ضمان المقاعد. وصنع القسنطينيون في هذا اليوم صنيعهم بالأمس، ففسحوا في مجالس كليّة الشعب كما فسحوا في الجامع الأخضر إكرامًا للوفود. وأبت الوفود إلا أن يكون لها شرك في معنى التكريم وأن يكون لأسمائها وبلدانها دخل في عداد المكرمين، فكان التكريم باسم العلماء زملاء الأستاذ وشركائه في العمل وباسم تلامذته وباسم هذه الوفود الحاشدة.

دقّت الساعة التاسعة، فتصدّرت هيئة جمعية العلماء سدّة القاعة واكتنفهم خطباء الحفلة وشعراؤها من تلامذة الأستاذ عن اليمين والشمال، وتقدّم رئيس الحفلة فقدم مقرئًا، أسمع الناس آيات من كلام اللّه، ثم فتح الرئيس باب الخطابة بارتجال كلمات. ثم قدم الخطباء على مراتبهم ثم الشعراء كذلك، وسيرى القارئ في آخر هذا العدد تلك الخطب والقصائد منشورة.

ولما كانت ساعات الاحتفال محدودة لا تتسع لجميع الخطباء ولا للقليل منهم، وكان التلامذة يمثّلون طبقات تمتد من أوائل النهضة إلى الآن، فقد رؤي حرصًا على الوقت والفائدة الاقتصار على من يمثّل تلك الطبقات، فتقدّم من يمثّل المتخرّجين في أوائل الحركة ثم من يمثّلون وسط الحركة واستفحالها، ثم من يمثّلون الطبقة المباشرة للتعليم.في السنوات الأخيرة ثم من يمثّلون الطبقة النازحة إلى جامع الزيتونة ثم من يمثّل الطبقة المستقلّة

بالتعليم ثم من يمثّل تلاميذ التلاميذ. وبعد انتهاء الخطباء أعلن الرئيس استراحة ربع ساعة ثم الرجوع لسماع الشعراء.

ولما انتهى دور الخطباء والشعراء المقرّرين في منهاج الحفلة، وقف كاتب هذه السطور وارتجل خطابًا تغنّى فيه بجمال يوم القرآن وهو يوم الختم وبفوائد الخير التي سيعود بها على الأمّة الجزائرية. وقد حاول كاتبان من كتّاب الحفلة أن يلتقطاه عند الإلقاء ففاتهما منه الكثير. وتقدّم إليّ الحريصون على تخليد الحفلة كاملة أن أكتب ما علق بالذاكرة من ألفاظها ومعانيها، فكتبت ما يقرؤه القارئ في آخر الخطب. وأنا أبرأ من ادعاء محاذاته كما ألقي ارتجالاً في ألفاظه ومعانيه.

وبعد خطبة الرئيس، قام الأستاذ المحتفل به وارتجل خطبة ضافية نستعيض عن وصفها ها هنا بتلخيص معانيها ونشرها مع الخطب.

وانفضّ الاحتفال على الساعة الثانية إلاّ ربع بعد الزوال.

ومن لطائف الاتفاق أنه خطر لبعض الهيئات تقديم هدية تذكارية للأستاذ، ولم تعلم هيئة بما اعتزمت عليه الأخرى من نوع الهدية. فلما قدّمت الهدايا أمام الجمهور بعد انتهاء الخطابة كان تناسقها مفاجأة مدهشة، وهي محفظة كتب عربية ثمينة قدّمها وفد تلمسان، وقلم تحبير ثمين معه قلم رصاص قدّمتها هيئة جمعية التربية والتعليم، ونسخة من تفسير المنار قدّمتها هيئة جمعية العلماء، ونسخة من كتاب فتح الباري قدّمتها لجنة الاحتفال.

وكما كانت هذه الهدايا لطيفة في معناها التذكاري وفي رمزها العلمي وفي تناسقها، فقد كان سرور الأستاذ بها عظيماً ووقعها في نفسه لطيفاً. ثم تمّ التناسق ولطف الذوق في حفلة المساء حين قدّم له تلامذة كشافة الرجاء مصباحًا كهربائيًا ظريفًا وقدّم له تلامذة الشباب الفني (زربية) سجادة صلاة.

• • •

وفي مساء الثلاثاء اشتركت ثلاث جمعيات علمية وفنية ورياضية في إقامة احتفال زاهر فخم في كليّة الشعب ابتهاجًا بضيوف القرآن.

أما الجمعيات: فهي جمعية التربية والتعليم وجمعية الشباب الفني الفنية وجمعية كشافة الرجاء الرياضية.

وأما الاحتفال فكان ناجحًا إلى أقصى حدود النجاح، مؤثّرًا إلى أبعد غايات التأثير، ظهرت فيه جمعية «الشباب الفني» – على حداثة عهدها– بمظهر الكفاءة والتجديد وسلامة الذوق والانسجام بين العازفين في المظهر وبين القطع في المخبر. وقد عزفوا قطعًا مشجية وترنم عليها التلامذة بأناشيد أشجى، حتى لقد رأيت كثيراً من عمار الصفوف الأمامية يبكون تأثرًا، وأن أنس فلا أنس التلميذين اللذين أنشدا نشيد الترحيب على عزف (البيانو)، أنهما لطراز عال في رخمات الصوت وسلامة الأداء وجمال المنطق حفظهما اللّه وأقرّ بهما أعين الأمّة التي تعلّق رجاءها على أمثالهما.

إن التطويل في وصف هذه الحفلة يفضي إلى التقصير. وخلاصة القول فيها إنها كانت زادًا روحيًا قدّمته قسنطينة لوفودها بعد أن جاوزت الغاية فيما قدّمته لهم من أطايب الغذاء البدني. وإن سرّها وسحرها ليسا آتيين من الإطراب في العزف والإطراف في الأناشيد والإجادة في التمثيل والاتزان في الحركات، وإنما هما آتيان من شيء آخر وراء هذا كله، هو أمل الأمّة في أبنائها، كان صورة في الأذهان ومخيلة في الأدمغة، فرأت منه في هذه الليلة نموذجًا عمليًا يبشّر بتحققه كله، إن الزمان بأحداثه يستطيع أن يمحو من نفوس الوافدين كل ما رأوا وما سمعوا ولكنه لن يستطيع محو شيئين: درس القرآن وهذه الحفلة، وإن الوافدين ليستطيعون أن يقابلوا كل

إكرام لقوه من إخوانهم القسنطينيين بمثله أو بأحسن منه إلا إكرامهم بمثل هذه الحفلة.

وانفضّ هذا الاحتفال في نهاية الساعة الواحدة بعد نصف الليل بعد أن ختمه الأستاذ بن باديس بكلمة توديع.

• • •

من المظاهر التي شاهدها الناس كلهم في هذا الاحتفال بسوابقه ولواحقه، الهدوء الشامل، فلم تحدث أية حادثة ولو بسيطة على كثرة الاحتشاد وشدة الازدحام واختناق التعاريج في المدينة. وليس مرجع ذلك إلى التنظيم الآلي، ففي أدون من هذا الاحتفال نرى الفوضى تطغى على النظام، وطباع السوء لا تنهنه بالزجر وإنما مرجع ذلك إلى التنظيم النفسي وإلى أدب القرآن وقد ملك أزمة النفوس.

وإن هذا النوع من التربية الدينية هو الذي نريده للأمّة، وهي تربية كثيرة الفوائد قليلة التكاليف، وقد جرّبت فصحت. فهل من معين لنا على تثبيتها وتعميمها؟ وكأن إدارة الأمن العام بقسنطينة أدركت ذلك فلم نر منها مظاهر الاستعدادات الاستثنائية التي كنا نراها في مثل هذه المشاه، وحسنًا فعلت.

4- خلاصة تفسير المعوذتين
من درس الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس
الذي ختم به تفسير القرآن (*)

كلمة بين يدي التلخيص

أكمل طرائق المتقدمين من علماء هذه الملة في تلقين العلوم – طريقة الإملاء. والإملاء نتيجة لاسْتِحْكام الملكة في العلم واستقلال الفكر فيه، أوسعة المحفوظ ورحابة آفاق الحافظة. واستحكام الملكة واستقلال الفكر وقوّة الحافظة مزايا تكاد تكون خالصة لعلماء سلف هذه الأمة لم يبلغ علماء الأمم الأخرى مُدَّ أحدهم فيها ولا نصيفه.

وكانت وظيفة السامعين كتابة ما يُملى عليهم كله أو خلاصته، وكانت المحابر والأقلام والأوراق هي الأدوات اللازمة لروّاد مجالس العلم، إلاّ في مقامات مقابلة الأصول وضبطها. فهنا لا بدّ من إحضار النسخ الكاملة من الكتب.

ومن ثمرات تلك الطريقة المثلى في التلقين والتلقي كتب الأمالي في الحديث واللغة والأدب، وفي تراجم المحدثين والأدباء الشيء الكثير من ذلك، وإن لم يُبق لنا الدهر منها إلاّ الأقل من القليل.

ولما انتهى عصر الرواية بجمع روايات السلف في التفسير ورواياتهم للأحاديث والسنن، ودُوّنت أصول اللغة والأدب والعلوم المتفرعة عنها وجاء

(*) «الشهاب»: هو الأستاذ الإبراهيمي كاتب التلخيص.

دور الاستغلال لها، نشأت عوامل الانحطاط في العلوم الإنسانية، وكان من أظهر مظاهرها جفاف القرائح وجدب الأفكار وضعف القوى الحافظة، وانحطت طرائق التلقين تبعاً لذلك وانحصرت في الطريق الشائعة إلى اليوم، وهي التزام كتاب تتعدّد نسخه بتعدّد المتلقين له، يحلل الشيخ عباراته ويشرح معانيه، وانحطت وظيفة السامعين من الكتابة والتقييد إلى الاستماع المجرد.

ولسنا نعيب طريقة التزام الكتب وشرح معانيها بالكلام، فذلك في حقيقته نوع قاصر من الإملاء، وإنما نَنْعَى على السامعين إهمالهم لكتابة ما يسمعون فتضيع عليهم الفوائد التي يلقيها الأستاذ وقد تكون قيّمة، كما تضيع في عصرنا هذه الخطب والمحاضرات المرتجلة التي لا يكتبها ملقيها ولا متلقيها.

ولسنا بصدد التأريخ لهذه الطرائق والمقارنة بينها، وبيان النقص والكمال فيها، وإنما ننبّه في هذا المقام إلى أن أسوأ أثر لهذه الطريقة الشائعة اليوم هو القضاء على الملكة العلمية، لأنها شغلت المعلم والمتعلم معاً بالكتاب عن العلم، إذ أصبح همّهما كله مصروفاً إلى تحليل الكتاب وفكّ عباراته والقيام على اصطلاحاته الخاصة، وفي بعض هذا ما يستغرق الوقت ولا يُبقي سعة لإدراك قواعد العلم وتطبيق جزئياته على كلّياته، وبعيد جداً على من يدرس علماً على هذه الطريقة أن تستحكم ملكته فيه، وكيف تستحكم ملكة الفقه مثلاً لمن يقرأه من مثل مختصر خليل على هذه الطريقة فيمضي وقته في تحليل عباراته وتراكيبه المعقدة التي ذهب الاختصار بكثير من أجزائها، وفي بيان التقديم والتأخير في الألفاظ، وربط المعمولات بالعوامل البعيدة، وإرجاع الضمائر المختلفة إلى مراجعها، والطفرة بالذهن من مذكور إلى مقدر، وهذا هو كل ما يشغل وقت المعلم والمتعلم، وهم في الحقيقة لا يدرسون علم

الفقه وإنما يدرسون كتاباً في الفقه، ودراسة الكتب لذاتها أصبحت اليوم فنًّا كماليًّا من التاريخ لا أصلاً في تعلّم العلوم.

والدارس لتاريخ العلوم الإسلامية يتجلّى له هذا في تراجم علماء تلك العلوم، إذ يجد فيها دائماً أشباه هذه العبارة: كان أقوم الناس على كتاب الجمل للخونجي، أو على كتاب التهذيب للبرادعي، أو على كتاب الشامل لابن الصباغ. كان نافذاً في إقراء المحصّل للرازي. كان سديد البحث في مختصر ابن الحاجب الأصلي، كثير المناقشة لعباراته. وأين سداد البحث وكثرة المناقشة في عبارة كتاب من تحصيل الملكة في علم؟ إن الأصولي الحقيقي هو الذي يُنفق ممّا عنده أو يُقرئه من أي كتاب كان، ولا يفتتن بكتاب معين هذا الافتتان، وإن الفقيه الحقيقي هو الذي يفهم الفقه لا الذي يفهم كتاباً في الفقه، وفي وقتنا هذا نسمع علماء المعاهد المشهورة يتمدّحون بمثل هذا ويصفون من يحسن إقراء التنقيح للقرافي على هذه الطريقة بالأصولي المحقق...

ولقد حاول جماعة من العلماء الحفّاظ في القرون الأخيرة إصلاح هذه الحالة وإحياء طريقة الأمالي فلم ينجحوا، لافتتان جمهور المتعلمين بالكتب وانصرافهم عن العلم إلى كتب في العلم. حاول ذلك الحافظ ابن حجر وهو أهل لذلك، ولكن أهل زمانه لم يكونوا أهلاً له، ونعى معاصره ابن خلدون المؤرخ طرق التلقين في زمنه وكثرة المؤلفات والمختصرات في العلم وعدّها عائقة عن التحصيل، وحاول ذلك بعد ابن حجر تلميذه الحافظ السيوطي وهو أهل لذلك على ما فيه من تبجّج واستطالة، وقد شكا في بعض رسائله إخفاقه في هذه المحاولة بعبارة مرّة، ووصف انصراف الجمهور عنها بأنه من غلبة الجهل وكلال الهمم وضعف العزائم.

نجمت في هذه العهود الأخيرة ناجمة اضطراب وتبرّم من طرائق التعليم المتبعة وكتبه الملتزمة، وارتفعت الأصوات بالشكوى من أضرارها وسوء عواقبها، وكان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أعلى الحكماء صوتًا بلزوم إصلاحها وأبلغهم بيانًا لأضرارها وسوءاتها ومعايبها، وأسدّهم رَأيًا في تغييرها بما هو أجدى منها وأنفع، وأكثرهم عملاً جديًّا في ذلك.

وكان من إصلاحاته العملية في هذا الباب درسه لكتاب اللّه بأسلوب حكيم لم يسبقه إليه سابق، وكان –رحمه اللّه– وهو مَن هو في استقلال الفكر واستنكار الطرائق الجامدة يجاري الطريقة الأزهرية بعض المجاراة لاعتبارات خاصة، ومن هذه المجاراة السطحية أنه كان يلتزم في تلك الدروس العامرة بالحكم العليا تفسير الجلالين ويستهلها بقراءة عبارته.

ولكن السامعين لتلك الدروس – على كثرتهم وجلالة أقدارهم في العلم والمعرفة، وتساويهم في الاعتقاد بأن تلك الدروس فيض من إلهام اللّه أجراه على قلب ذلك الإمام وعلى لسانه، وأنها ممّا لم تنطوِ عليه حنايا عالم ولا صحائف كتاب – لم تتسابق أقلامهم لتقييد تلك الدروس إلاّ قليلاً، ولو أنهم فعلوا لما ضاع من كلام ذلك الإمام حرف واحد، ولو لم يقيّض اللّه محمد رشيد رضا لهذا العمل الجليل لضاع كله، ولكن اللّه وفقه لحفظ معاني تلك الدروس وسدّد قلمه في أدائها، ثم نهج نهجه بعد موته وسار على شعاع هديه في تفسير كلام اللّه فأبقى لهذه الأمة الأسفار القيمة المعروفة بتفسير المنار.

• • •

مدّت حركة الإصلاح العلمي مدّها بعد موت الإمام وانتشرت في الأقطار الإسلامية وأسفرت عن إصلاح حقيقي لأساليب التعليم في المعاهد الحرّة،

وعن إصلاح صوري في المعاهد الرسمية، ولا تزال الحرب قائمة في هذه المعاهد بين طلاب الإصلاح وبين أنصار الجمود، وستكون العاقبة للمصلحين بإذن اللّه. ولقد كان من حسن حظ الجزائر أن باعث النهضة العلمية فيها الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس قد وضع أساس هذه النهضة على قواعد صحيحة من أول يوم، فسلك في درس كلام اللّه أسلوبًا سلفي النزعة والمادة، عصري الأسلوب والمرمى مستمدا من آيات القرآن وأسرارها أكثر ممّا هو مستمد من التفاسير وأسفارها. وقد قرأنا له في بعض افتتاحيات مجلة «الشهاب» أنه يعتمد في هذه الدروس على تفاسير مخصوصة في مواضيع مخصوصة، كالطبري في المأثور والكشاف للزمخشري في أسرار الإعجاز، وذلك صحيح ومفيد لمن يجعل فهوم الرجال مقاييس لفهمه، ولا يعطيها أكثر من أنها فهوم تصيب وتخطئ، أما المعنى الصحيح لكتاب اللّه فيستجليه من البيان العربي والشرح النبوي ومن مقاصد الدين وأسرار التشريع، ومن عجائب الكون وسنن اللّه فيه ومن أحكام الاجتماع الإنساني، ومن تصاريف الزمن ونتائج العقول وثمرات العلوم التجريبية.

وإذا كان من دواعي الغبطة ختم تفسير القرآن على هذه الطريقة في القطر الجزائري، فإن من دواعي الأسف أنه لم ينتدب من مستمعي هذه الدروس من يقيّدها بالكتابة، ولو وجد من يفعل ذلك لربحت هذه الأمّة ذخرًا لا يقوَّم بمال، ولاضْطلع هذا الجيل بعمل يباهي به جميع الأجيال، ولتمخض لنا ربع قرن عن تفسير يكون حجة هذا القرن على القرون الآتية. ومن قرأ تلك النماذج القليلة المنشورة في الشهاب باسم مجالس التذكير علم أي علم ضاع وأي كنز غطى عليه الإهمال.

ولما كان اليوم المشهود بختم هذه الدروس جمع أحد الحاضرين ما وعته ذاكرته وأمكنه تقييده من معنى درس الختم في تفسير المعوذتين وتصرف في ألفاظه بما لا يخرج عن معانيه، إذ لم يكن من الميسور أن يلتقط الألفاظ كلها. فجاء بهذه الخلاصة التي ننشرها على الناس في هذا العدد الخاص بالاحتفال .لافتين أنظارهم إلى أن هذه الخلاصة محيطة بمعاني الدرس مع تصرف ضروري اقتضته مساوقة ما كتب لما قيل.

• • •

استهل الأستاذ الدرس بعد الاستعاذة والتسمية بالتحميد المأثور: الحمد للّه إن الحمد للّه. نحمده ونشكره ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يضلل اللّه فلا هادي له ومن يهد فما له من مضل، ونشهد أن لا إله إلاّ اللّه ونشهد أن محمداً عبده ورسوله.

ثم عقّب بما ثبت أن رسول اللّه ﷺ كان يبدأ به خطبته. وجرت عادة المُحدِّثين والمفسِّرين أن يفتتحوا به مجالس التحديث والتفسير، وإن اختلفت الروايات في ألفاظه وهو قوله ﷺ: أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كتاب اللّه وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

ثم قال توطئة للدخول في تفسير المعوذتين ما معناه مع تصرف وتوضيح:

بني هذا الكون الدنيوي على أن يقترن فيه الخير بالشر، وأن يتصلا وأن يشتبها وأن يحيطا بالإنسان من جميع جهاته، فتكون أعماله الكسبية في الحياة مكتنفة بهما دائرة بينهما موصوفة بأحدهما ولا بدّ. ذلك من قدر اللّه ومن سننه العامة في هذا العالم الإنساني.

وحكمته المبيَّنة في وحيه هي ابتلاء خلقه ليجازوا على ما يكون من كسبهم وسلوكهم بعد أن وهبهم العقل والتمييز، وأكمل عليهم نعمته بهداية الدين عدلاً منه تعالى ورحمة، وحكمة أخرى وهي تمرين هذا الإنسان في حياتيه العلمية والعملية، وتدريب فكره على اختيار الأنفع على النافع، والنافع على الضار، ثم سوق الجوارح إلى العمل على ذلك الترتيب وترويضها عليه.

والإنسان يكتسب القوّة والدربة بتمرّسه على ما يلقاه من الخير والشر بعمله وبفكره، وللفكر الإنساني عمل سابق لأعمال الجوارح المجترحة، وسائق لها ومُهَيِّئٌ لما يظهر أنه من بدوائها.

وهذا العمل الفكري تظهر قوّته في نواح منها -وهو أهمها- التمييز بين الخير والشر، وأدق منه التمييز بين خير الخيرين وشر الشرين. فإن الخير درجات وأنواع، والشر كذلك دركات وأنواع.

والإنسان في هذا الخضم الذي تلاطمت أمواجه. وفي هذا الفضاء الذي تشابهت أفواجه، محتاج إلى معونة إلهية في تمييز الخير من الشر. وقد أمدّه اللّه بهذه المعونة من دينه الحق، ومحتاج إلى تأييد إلهي يعصمه من الشر ويقيه من الوقوع فيه عن جهالة أو عمد، وقد هداه اللّه إلى أسبابه ووسائله بما شرع له من المنبهات عند طروق الغفلة، والمبصرات عند عروض الشبهة، والمعوذات المحصنات عند إلمام لمة الشيطان وطواف طائفه. ومن هذه المعوذات عقائد تدفع عن صاحبها الشكوك وهي شر، وحقائق تقي صاحبها الوهم وهو شر. وعبادات تربي مقيمها على الخير وتنهاه عن الفحشاء والمنكر. وأعمال تثبِّتُ فاعلها على الحق. وأقوال يمليها القلب العامر بتقوى اللّه والخوف من مقامه على الألسنة لتكون شهادة لها وعنوانًا عليها، والألسنة

تراجمة القلوب، فكان ممّا شرع اللّه لنا في كتابه وعلى لسان نبيه التعوذ باللسان من الشر والباطل، وأنزل اللّه عليه هاتين السورتين وفيهما الاستعاذة بالله من أنواع من الشرور هن أمهات لما عداهن، وكان نبينا عليه السلام يكثر التعوذ باسم اللّه وكلماته من أنواع أخرى من الشرور مفصلة في صحاح السنة.

أما السورتان فيكفي في فضلهما ما أخرجه مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر الجهني قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت الليلة لم يرُ خير منهن قط، قل أعوذ بربّ الفلق، وقل أعوذ برب الناس». وفي رواية أخرى في مسلم عنه تسميتها بالمعوذتين، وفي رواية أبي أسامة في مسلم أيضا وصف عقبة بن عامر بأنه كان من رفعاء أصحاب محمد ﷺ. فتسمية هاتين السورتين بالمعوذتين تسمية نبوية مأثورة كأسماء جميع سور القرآن، وقد يقال المعوذات ويراد بها ما يشمل سورة الإخلاص. وكفى بما فيها من أصول العقائد معاذاً من الشرك وهو أصل الشرور كلها.

وحديث مسلم هو أصحّ ما ورد في نزولهما، وأما ما يذكر في نزولهما في قصّة سحر النبي [فإن ذلك لم يصح سببًا لنزولهما، وإن كان لقصة السحر وصاحبها لبيد بن الأعصم أصل ثابت في الصحيح، وقد تساهل كثير من المفسرين في حشر هذا السبب في تفسيرهما، وفي حشر كثير مما لم يصح في فضائلهما، ولنا فيما صح غنية عما لم يصح.

وهذه الخيرية التي أثبتها لهما حديث عقبة عند مسلم هي خيرية نسبية في ناحية مخصوصة، وهي ناحية التعوّذ بهما من الشرور العامة والخاصة المذكورة فيهما، ودليل هذه النسبية ما أخرجه النسائي في سننه عن ابن عابس الجهني أن رسول اللّه ﷺ قال له: «يا ابن عباس ألا أدلّك، أو ألا أخبرك

بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون، قال: بلى يا رسول اللّه، قال: قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، هاتين السورتين».

فبيّن ﷺ أن خيريتهما وأفضليتهما من جهة ما تشتملان عليه من معنى التعوذ، وهو من المعاني الداخلة في دائرة ما كلفنا اللّه به.

ولهاتين السورتين خصوصية غير المناسبات التي يذكرونها في ارتباط بعض السور بالبعض، ويستخرجون منها بالتدبر ما لا يحصى من الأنواع، وهذه الخصوصية هي ختم القرآن بهما وهما كالسورة الواحدة. فما هي الحكمة في ختم القرآن بهما؟ وترتيب السور توفيقي ليس من صنيع جامعي المصحف كما ذكره السيوطي في الإتقان وجماعة.

يستطيع ممارس القرآن ومتدبره ومتلقيه بالذهن المشرق والقريحة الصافية أن يستخرج من الحكم في هذا الختم بهما أنواعًا، ولكن أجلاها وأوضحها أنهما ختم على كنوز القرآن في نفس المؤمن. وتحصين لهذه النعم المنثالة من القرآن عليه أن يكدرها عليه كيد كائد أو حسد حاسد. فإن من أوتي الشيء الكريم ورزق النعمة الهنية هو الذي تمتد إليه أيدي الأشرار وألسنتهم بالسوء، وتقذفه عيونهم بالشرر وتتطلع إليه نفوسهم بالحسد والبغضاء، ويشتد عليه تكالبهم سعيًا في سلبه منه أو تكديره عليه، وبقدر النعمة يكون الحسد، وعلى مقدار نفاسة ما تملك تكون هدفًا لمكائد الكائدين، وتأتيك البلايا من حيث تدري ولا تدري، ومن أوتي القرآن فقد طوى الوحي بين جنبيه وأوتي الخير الكثير، فهو لذلك مرمى أعين الحاسدين ومهوى أفئدة الكائدين، فكان حقيقًا، وقد ختم القرآن حفظًا أو مدارسة أو تلاوة، أن يلتجئ إلى الله طالبًا منه الحفظ والتحصين

من شر كل كيد وحسد يصيبه على هذا الخير العظيم الذي كمل له، وهذه النعمة الشاملة التي تمت عليه.

هذه حكمة، أخرى: وهي أن من أوتي القرآن وتفقّه فيه فقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب، وأحاط بالعلم من أطرافه وملك كنزه الذي لا ينفذ. وأن من آفات العلم اغترار صاحبه به، وقد يتمادى به الغرور حتى يسوّل له أن ما أوتيه من العلم كافٍ في وقايته من الأضرار ونجاته من الأشرار، فكان من رحمة اللّه بصاحب القرآن ولطف تأديبه له، وحسن عنايته به، أن ختم بهاتين السورتين كتابه لتكونا آخر ما يستوقف القارئ المُتَفَقِّه، وينبهه إلى أن في العلم والحكمة مسألة لم يتعلمها إلاّ الآن، وهي أنه مهما امتدّ في العلم باعه واشتد بالحكمة اضطلاعه، فإنه لا يستغني عن اللّه ولا بد له من الالتجاء إليه والاعتصام به، يستدفع به شر الأشرار وحسد الحاسدين، وكفى بهذه التربية قامعًا للغرور، وإنه لشر الشرور.

هذه هي المناسبة العامة بين جميع القرآن مرتبًا ترتيبه التوقيفي وبين هاتين السورتين في اتحاد موضوعهما.

وأما المناسبة الخاصة بين السورتين وبين سورة الإخلاص، فهي أن سورة الإخلاص قد عرَّفت الخلق بخالقهم بما فيها من التوحيد والتنزيه والتمجيد. فإذا قرأتَ القرآن وتدبَّرتَه على ترتيبه، ووجدتَ توحيد اللّه منبثًا في آياته وسوره، متجليًّا ذلك التجلي الباهر بمعارضه وصوره، سادًّا ببراهينه على النفوس كل ثنية وكل مطلع، كانت آخر مرحلة يقطعها فكرك من مراحل التوحيد في القرآن، هذه السورة المعجزة على قصرها، فكأنها توكيد لما امتلأت به نفسك من معاني التوحيد، وكأنها وصية

مودّع مشفق بمهمّ يخشى عليك نسيانه فيعمد فيها من الكلام إلى ما قلّ ودلّ ولم يملّ.

ومِن صِدقِك في توحيدك لله في ربوبيته وإلهيته، أن تنقطع عن هذا الكون وتكون منه وكأنك لست منه، بصدق معاملتك للّه وإخلاص توحيدك إياه. فأنت وقد آمنت وصدّقت وخرجت من سورة الإخلاص متشبعًا بمعانيها، ومنها معنى الصمد، تستشعر أن العالم كله عجز وقصور، وأن خيراته مكدّرة بالشرور، وأن لا ملجأ إلاّ ذلك الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤًا أحد، فَتَجيءُ المعوذتان بعد الإخلاص مبينتين لذلك الالتجاء الذي هو من تمام التوحيد.

ولأجل هذه المناسبة والارتباط بين السور الثلاث جمع بينهن في التسمية، ففي الصحيح عن عائشة –رضي الله عنها– أن النبي ﷺ كان ينفث عن نفسه بالمعوذات، وسياق النسائي لحديث عقبة بن عامر المتقدم أن رسول الله قرأ وقرأت معه الإخلاص ثم قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، فلما ختمهن قال: ما تعوّذ بمثلهن أحد. وكما جمع ﷺ بينهن في التسمية والتعوذ جمع بينهن عمليًّا في قراءة الوتر.

هذا إجمال المناسبة الخاصة بين السور الثلاث.

• • •

سورة الفلق:

قال تعالى: ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾[1] الأمر المفرد للنبي –عليه السلام–، ومن حسن الأدب في مقدرات القرآن أن تقدر في مثل هذا الأمر أيها الرسول أو أيها النبي، لأنهما الوصفان اللذان نطق بهما القرآن في نداء النبي –عليه السلام،

الفلق / 1.

وأن لا تقدر يا محمد كما هو جار على الألسنة وفي التصانيف، فإن القرآن لم يخاطبه باسمه.

والأمر لنبيّنا أمر لنا لأننا المقصودون بالتكليف، ولا دليل على الخصوصية، فهو في قوّة قل أنت وقل لأمتك يقولون.

وأعوذ: أستجير وألتجئ، ويتعدى هو وجميع تصاريفه بالباء كأستجير، والعوذ والعياذ مصدران منه كالصوم والصيام، وفي القرآن مما جاء على المعنى اللغوي ﴿**يعوذون برجال من الجن**﴾[1] ومن كلام العرب: قد استعذت بمعاذ.

والرب: الخالق المكوّن المربي، ومواقع استعمال هذه الكلمة في القرآن هي التي تكشف كل الكشف عن معناها الكامل.

والفلق: الفجر المفلوق المفري، ومن لطائف هذه اللغة الشريفة أن: الفتح والفلح والفجر والفلق والفرق والفتق والفري والفأ والفقأ والفقه، كلها ذات دلالات واحدة، وتخصيصها بمتعلقاتها باب من فقه اللغة عظيم.

ومما وصف به ربنا نفسه في القرآن: ﴿**فالق الإصباح**﴾[2]، و﴿**فالق الحَبّ والنوى**﴾[3]، فهما من أسمائه تعالى.

ومواقع هذه الألفاظ التي تضاف إلى كلمة رب في القرآن، كمواقع أسماء المخلوقات التي أقسم بها اللّه، كلاهما عجيب معجز، فكل لفظة تستعمل في المقام الذي يناسبها وتناسبه، وكل لفظة تبعث في الأسلوب الذي وقعت فيه متانة وقوّة وفي معناه وضوحا وجلاءً، وسر إضافة الفلق إلى «ربّ» هنا، أن الفجر بمعناه العرفي هو تشقق الظلمة عن النور، فإن الليل يكون مجتمع الظلمات مسدول

---

(1) الجن / 6.
(2) الأنعام / 96.
(3) الأنعام/ 95.

الأرواق، فإذا جاء الصبح حصل الانفراق. والذي يبقى بعد ذلك الانفلاق هو النور الذي نفى الظلمة، ولا ينفي ظلمات الشر والضلال والباطل إلاّ أنوار الخير والهدى والحق من خالقها وفالق أنوارها، وكما أضيف الفلق بمعنى الفجر إلى كلمة رب هنا، أقسم به في آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿والفجر﴾[1].

﴿ومن شر ما خلق﴾[2]: من كل مخلوق فيه شر، فلا يدخل في عمومه إلاّ كل شرير من أي العوالم كان، كما يدخل في عموم الناطق كل ذي نطق، أو من شر كل مخلوق، ومن مخلوقات اللّه ما هو خير محض كالأنبياء والملائكة، ومعلوم أن المخلوقات كلها خلقت بحق ولحكمة فهي في نفسها خير. فإن كان لا ينشأ من أعمالها أو آثارها إلاّ الخير فهي الخير المحض، وإن كان ينشأ عنها الشر أحياناً أو دائماً فعملها هو الشر وهو المستعاذ منه، وتصحّ نسبة هذا القسم إلى اللّه من حيث الخلق والحكمة، ونسبة أعماله إليه من حيث التقدير والتكوين لا من حيث الرضى والتكليف، فاللّه لا يرضى بالشرّ ولا يكلف به، وقصارى إبليس وهو مادة الشر في هذا الوجود أن يزين الشر ويلبسه بالخير، فالشر بيد اللّه خلقة وحكمة لا رضًا وتكليفاً، والخير بيد اللّه خلقة وحكمة ونعمةً وأمراً.

وقد يكون الشرّ ذاتيًا لا ينفك، وقد يكون نسبيًا باعتبار حالة تعرض واتجاه يقصد، ونعم اللّه على عباده قد تنقلب عليهم شراً وبلاءً بسبب سوء تصرفهم فيها، كالمال الذي سماه اللّه خيراً في القرآن، يكسبه صاحبه من الوجوه المشروعة وينفقه في الوجوه المشروعة، ويتحرى رضا اللّه في جمعه وتفريقه فيكون خيراً بذاته وبعمل صاحبه، ويتصرف فيه بعكس ذلك فيكون شراً لا من ذاته بل من عمل صاحبه.

---

(1) الفجر / 1.

(2) الفلق / 2.

وهذا العالم الإنساني المكلف هو الذي يتجلّى الخير والشرّ في أعماله، ويتصلان بحياته اتصالاً وثيقًا، وإنما عيب عليه الشر وقبح منه لأنه قادر على تمييزه واجتنابه ومكلف بذلك، وقد وضع له الدين قوانين ثابتة للخير والشر ووضّح له أن الخير ما نفع وأن الشر ما أضر، ولكنه وإنْ أوتي قوّة التمييز لم يؤت قوّة الاستعصام ابتلاء من اللّه، فأما المخذول فيأتي الشر عامداً متعمداً وهو يعلم أنه شر، وأما الموفق فيواقع الشر في مواقف يشتبه عليه فيها الخير بالشر ويعسر التمييز، والخير والشر لا يوزنان بميزان حسّي يستوي الناس كلهم في إدراكه، وقد تَدِقُّ الفوارق بينهما حتى تخفى، وفي هذه المواقف يجب الالتجاء إلى اللّه ليرينا الخير خيراً ويكشف لبصائرنا عن حقائق الشر، فلا يلتبس علينا شيء بشيء، وبعد أن يوجه الاضطرار نفوسنا هذا التوجيه الصحيح، تندفع ألسنتنا وتقول: ﴿**أعوذ برب الفلق من شر ما خلق**﴾[1].

وبهذا تظهر المناسبة الدقيقة بين رب والفلق، فإن رب الناس ومربيهم وسائقهم إلى ما يكمل وجودهم هو الذي تنكشف لعلمه سرائرهم، والفلق نور يشكف للعيان كل المبصرات فتُرَى على حقائقها ومقاديرها، لا يزيغ البصر في شيء منها ولا يطغى، والإنسان مهما يكن عالمًا فقد تخفى عليه حقائق المعقولات فيزيغ فكره ويطغى.

ومناسبة أخرى وهي أن الشر ظلام، وقد أجرى اللّه في فطر البشر تصور الشر كالظلام، وأجرى على ألسنتهم تشبيه الشر بالظلام، ذلك أن ما يلابس إحساسهم من الأُنس بالنور والبشاشة له هو عين ما يلابسه من الأُنس والبشاشة للخير، وأن ما يضايقهم من وحشة الظلام وتوقع الهلاك فيه هو عين ما يضايقهم من ذلك في الشر.

---

(1) الفلق / 1، 2.

هذا كله في الشر على عمومه ثم خصص تعالى من هذا العموم ثلاثة أنواع من الشر لشدة تعلقها بحياة الإنسان وكثرة عروضها له، ويجيء أكثرها من أخيه الإنسان، ورتبها ترتيبًا بديعًا لا يستغرب في جنب بلاغة القرآن، ودقته في رعاية المراتب وتنسيقها في العرض على الأذهان.

هذه الثلاثة هي: الغاسق إذا وقب، والنفاثات في العقد، والحاسد إذا حسد.

والغاسق: الليل المظلم والمراد هنا المصيبة تطرق ليلاً وعلى غرّة.

ووقب: دخل في الوقب وهو النقرة في الشيء.

والنفاثات: السواحر ينفثن الريق، واللفظ جمع نفاثة كثيرة النفث.

والعقد: جمع عقدة بيان لعادة السواحر المعروفة من عقد الخيوط ونفث الريق عليها.

والجامع بين الثلاثة هو اشتراكها في الخفاء، فإن الغاسق ظلام تخفى فيه الشرور، والنفاثات مبني أمرهن على الإخفاء تهييلاً وإيهامًا، والحسد داء دفين.

فالثلاثة كما ترون شرها خفي، وكل شر يخفي عمله أو يخفى أثره يجلّ خطبه ويعظم خطره، فيعسر التوقّي منه والاحتياط له، لأنك تتقي ما يظهر ويستعلن، لا ما يخفى ويستتر، لا جرم كانت الثلاثة جديرة بالتخصيص.

أما نكتة الترتيب فإن الليل ليس شرًا في نفسه ولا الشر من عمله، وإنما هو ظرف للشرور، والعلاقة بين الشيء وظرفه مكينة في النفوس، قوية في الاعتبار، مسبّبة للحكم على أحدهما بحكم الآخر.

بخلاف النفاثات والحساد فإن الشر من عملهما ومن وصفهما، ولانطباعهما عليه صار ذاتيًا لهما، ولا شك أن الشر الذاتي أمكن من العرضي، كما أن بين الإثنين تفاوتا في ذاتية الشر وقوّته وعسر التوقّي منه. فالنفاثات

وإن كن يتحرين إخفاء عملهن ولكنه مما يمكن ظهوره وافتضاحه، بخلاف الحاسد فإنه يخفي شره ويبالغ فيظهر بمظهر الخير، فشره أشد والتوقي منه أعسر، ففي الترتيب بين الثلاثة ترقٍّ من الأخف إلى الأشد.

ومن جهة أخرى نجد التناسب ظاهراً بين الثلاثة: الغاسق والنفاثات والحاسد، فإن الجميع ظلام، ظلام الزمن وظلام السحر وظلام الحسد.

وفي تقييد الغاسق بالوقوب احتمالان كلاهما صحيح مفيد للمراد: الأول أن وقوب الغاسق عبارة عن اعتكار الظُّلم وتكاثفها، فكأن بعض أجزائها يدخل بعضاً، والظلام يبدأ خفيفاً مشوباً بإسفار من الشفق أو من طبيعة الأرض، ثم يشتد ويحلولك حتى يغطّي على كل شيء، فتلك التغطية هي الوقوب، والوقوب على هذا الاحتمال منظور فيه إلى ظرفه الزماني، وفائدة القيد حينئذ أن تلك الحالة المصورة بهذه الجملة هي التي تقع فيها الشرور من الآدميين وغيرهم. فالطارق يطرق والسارق يسرق والحيات تنتهس، والضواري تفترس. وظلام الليل يستر ذلك كله ويعين عليه ويعوقعن الاستصراخ والاستنجاد، والعرب تقول في ما يشير إلى هذا: الليل أخفى للويل.

فالمستعاذ منه على هذا الاحتمال شر يقع في زمان، والاحتمال الثاني أن الوقوب في حقيقته هو دخول شيء في شيءٍ دخولاً حسّيًّا فيقتضي ظرفاً مكانيًّا، وما هذا الظرف إلاّ الأبنية والمساكن، والظلام حين يهجم يدخل المساكن فيملؤها، ويكون دخوله فيها أبين من دخوله في الفضاء. وملؤه إياها أشد، فالوقوب على هذا منظور فيه إلى ظرفه المكاني، لأن الشرور التي ترتكب في البيوت حين يغمرها الظلام أكثر مما يرتكب منها في الفضاء خصوصاً من الآدميين، والمستعاذ منه شر يقع في مكان، وعلى

الاحتمالين لما كان الليل معواناً بذوي الشر على شرهم، أضيف الشر إليه واستعيذ بالله منه.

والنفاثات: صفة إما للنفوس فتشمل الرجال والنساء، وتكون الاستعاذة من شر كل من يتعاطى هذا الفعل رجلاً كان أو امرأة، وإما للنساء وخُصِّصن بذلك لأن وقوع هذا الفعل منهن أكثر، وهُنَّ به أشهر.

والنفث: إخراج الهواء من الفم مدفوعًا بالنفس بدون بصاق، أو مع قليل منه تتطاير ذراته وهو دون التفل. والنفث وإن كان عامًا لكنه اشتهر فيما يفعله السحرة، يعقدون خيطًا ويتمتمون عليه برقى معروفة عندهم، وينفثون على كل عقدة منه بقصد إيصال الشر من نفوسهم الخبيثة إلى نفس المسحور، ﴿**وما هم بضارين به من أحد إلاّ بإذن اللّه**﴾[1] . وما أمرنا اللّه بالاستعاذة من شره إلاّ لأنه يؤثّر في بعض النفوس القابلة للتأثر به، حاش النفوس المعصومة كنفوس الأنبياء، فإن شرور الدنيا وأسواءها لا تعدو أبدانهم إلى أرواحهم، ولا يتعاصى على هذه القاعدة ما ورد في سحر لبيد بن الأعصم اليهودي لرسول الله ﷺ وما يوهمه لفظ الرواية فإن ذلك كله لا يخرج عن التأثر البدني.

ونحن نعتقد دينًا أن تأثير المؤثرات هو من وضع اللّه وحده، ونقطع علمًا وتجربة أن للقوى النفسية تأثيرًا أعظم من تأثير القوى الجسمانية، وأن مظاهر هذا التأثير النفساني تأثير العين في المعيون، وتأثير التنويم في المنوَّم، وأن التأثير والتأثر النفسانيين يختلفان باختلاف النفوس الفاعلة والمنفعلة قوّة وضعفًا، وأن تأثير العين ليس من ذاتها وإنما هو من النفس التي من وراء العين، ولو كان التأثير من ذات العين لكانت كل عين ناظرة تُحدث ذلك الأثر، وإن هذا التأثير لون من ألوان النفس، فإن كانت خيرة كان تأثيرها خيرًا، وإن كانت شريرة كان شرًا.

---

(1) البقرة / 102.

فالنفث المذكور في الآية إن أثَّر فإنما يؤثر بالقوّة النفسية التي من ورائه، والساحر لا ينفث من نفسه الخبيثة إلاّ نفث الشر، لأن الشر هو صفته الطبيعية، كالحية لا تنفث الترياق وإنما تنفث السم، وكالعدوّ يلقاك بطعن الأسَل، لا بطعم العسل إذ كان ذلك من طبيعة العداوة.

هذا نفث الشر من النفوس الشريرة كنفوس السحرة. وأما النفوس الطيبة كنفوس المؤمنين فإنها تنفث الخير للخير. وفي الصحيح عن عائشة -رضي الله عنها- أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه جمع بين كفيه ثم نفث فيهما وهو يقرأ المعوذتين ثم مسح بهما ما استطاع من بدنه، يبدأ برأسه ووجهه يفعل ذلك ثلاث مرات، فهذا نفث الخير من خير نفس خلقها اللّه، ثم قالت في تمامه: فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك، وفي رواية: كان يقرأ بالمعوذات فلما ثقل كنت أنفث عليه بهذا وأمسح بيد نفسه رجاء بركتها، وفي رواية مسلم عنها أنه كان يفعل ذلك إذا مرض أحد أهله.

فهذه الأحاديث -وهي ثابتة صحيحة- تثبت أن رسول اللّه ﷺ كان يقرأ المعوذات وينفث حين القراءة نفث الخير قطعًا. ،تبين لنا أن كل نفس تنفث ما وقر فيها، وأن النفث إيصال للقوّة الروحانية إلى ما يراد وصول الأثر إليه، وهي دليلنا على ما أسلفنا من أن في النفث خيراً وشراً، ولولاهما لما كان النفث إلاّ من فعل السحرة.

والنفوس إذا استفزّها شيء من ملابستها تتفشى فيها الروحانية وتضطرب، فكأنها بذلك النفث تنفض جزءاً من روحانيتها على نفس أخرى أو على بدن، وكأن تحريك اللسان بقراءة أو غيرها إثارة لتلك الروحانية واستدعاء لها، حتى تتصل بالريق الذي ينفث كما يتصل السيال الكهربائي بشيء مادي. وقد

علمنا أن السحرة لا ينفثون نفثًا مجرداً بل يغمغمون برقى شيطانية وأسماء أرواح خبيثة.

ومن الشواهد لنفث الريق ما أخرجه مسلم من حديث عائشة -رضي الله عنها- أن رسول اللّه ﷺ، كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه أو كانت به قرحة أو جرح قال النبي بأصبعه هكذا (تعني وضعها على الأرض كما فسرها سفيان بالعمل) ثم رفعها وقال: بسم اللّه تربة أرضنا بريقة بعضنا ليشفى بها سقيمنا بإذن ربنا.

(بعد رواية الأستاذ لهذا الحديث سكت لحظة كمن يستجمع خواطره ثم اندفع فقال ما معناه بتوسع):

إن القرآن كتاب الدهر ومعجزته الخالدة، فلا يستقل بتفسيره إلاّ الزمن، وكذلك كلام نبينا ﷺ المبيّن له، فكثير من متون الكتاب والسنة الواردة في معضلات الكون ومشكلات الاجتماع، لم تفهم أسرارها ومغازيها إلاّ بتعاقب الأزمنة وظهور ما يصدقها من سنن اللّه في الكون، وكم فسرت لنا حوادث الزمن واكتشافات العلم من غرائب آيات القرآن ومتون الحديث، وأظهرت منها للمتأخرين ما لم يظهر للمتقدمين، وأرتنا مصداق قوله ﷺ في وصف القرآن: «لا تنقضي عجائبه».

والعلماء القوامون على كتاب اللّه وسنة رسوله لا يتلقونهما بالفكر الخامد والفهم الجامد، وإنما يترقبون من سنن اللّه في الكون وتدبيره في الاجتماع ما يكشف لهم عن حقائقهما، ويكلون إلى الزمن وأطواره تفسير ما عجزت عنه أفهامهم، وقد أثر عن جماعة من فقهاء الصحابة بالقرآن قولهم في بعض هذه الآيات: لم يأت مصداقها أو تأويلها بعد. يعنون أنه آتٍ وأن الآتي به حوادث

الزمان ووقائع الأكوان وكل عالم بعدهم فإنما يعطي صورة زمنه بعد أن يكيف بها نفسه.

ولو أننا عرضنا حديث التربة والريقة على طائفة من الناس مختلفة الأذواق متقسمة الحظوظ في العلم وسألناهم: أية علاقة بين الشفاء وبين ما تعاطاه النبي ﷺ من أسبابه في هذا الحديث؟ فماذا تراهم يقولون؟

يقول المتخلف القاصر: تربة المدينة بريق النبي ﷺ شفاء ما بعده من شفاء.

ويقول الطبيب المستغرب: هذا محال، في التراب (مكروب)، وفي الريق (مكروب)، فأنَّى يَشْفيان مريضًا أو ينفسان عن مكروب.

ويقول الكيمياوي: ها هنا تفاعل بين عنصرين، ودعوا التعليل، فالقول ما يقول التحليل.

ويقول ذوو المنازع القومية والوطنية، ولو كانوا يدينون بالوثنية: آمنا بأن محمداً رسول الله. فقد علّم الناس من قبل أربعة عشر قرنًا أن تربة الوطن معجونة بريق أبنائه تَشْفي من القروح والجروح، ليربط بين تربته وبين قلوبهم عقداً من المحبة والإخلاص له، وليؤكد فيها معنى الحفاظ له والاحتفاظ به، وليقرر لهم من منن الوطن منّة كانوا عنها غافلين، فقد كانوا يعلمون من علم الفطرة أن تربة الوطن تغذي وتُروي، فجاءهم من علم النبوة أنها تَشْفي، فليس هذا الحديث إرشاداً لمعنى طبي، ولكنه درس في الوطنية عظيم، ولو أنصف المحدثون لما وضعوه في باب الرقى والطب، فإنه بباب حب الوطن أشبه. وما نرى رافع العقيرة بقوله:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بوادٍ وحولي إذْخر وجليل

وهل أرِدَنْ يومًا مياه مجنة وهل يبدوَنْ لي شامة وطفيل.

إلاّ سائرًا على شعاعه. وما نرى ذلك الغريب المريض الذي سئل فيم شفاؤك؟ فقال: شمة من تربة اصطخر، وشربة من ماء نهاوند إلاّ من تلامذة هذا الدرس، ولقد زادنا إيمانًا به بعد إيمان أنه يقول: تربة أرضنا بريقة بعضنا، ولم يقل: تربة الأرض بريق بني آدم، فليس السر في تربة وريق ومرض، ولكن السر في أرضنا وبعضنا ومريضنا فهذه -واللّه ربنا- صخرة الأساس في بناء الوطنية والقومية لا ما يتبجح به المفتونون.

ويقول الروحانيون: إن هناك روحًا طاهرة تتصل بتربة الأرض التي خلق المريض منها وتغذى بنباتها ومائها، وتنفس كبده في جوّها وهوائها، من ريقة منفوثة نفث الخير من نفس مؤمنة قوية الروحانية طيبتها، فيكمل التكوين بين الريق والتربة مع اسم اللّه الذي قامت به السموات والأرض وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، فيحصل الشفاء بهذا العمل النفساني. وإذا تجلّت النفس بعجائبها لم يبق في الوجود عجيب.

ويقول غير هؤلاء ما يقول، وهذه المتون كاسمها متون، وهذه الأصول كاسمها أصول.

وهكذا تأتي بعض المتون من كلام اللّه وكلام رسوله معجزة للعقول، فتتطاير من حولها الفهوم والآراء تطاير الشعراء، ويظن كل عقل أن حرفته آلة لتفسير تلك المتون، والعلوم حرف العقول، والزمان من وراء الكل يصيح أن انتظروا...

ومن شرها حاسد إذا حسد[1]: الحاسد الذي قامت به صفة الحسد، وهو الذي يحب أن تُسلب النعم من غيره، وقد تلج به هذه الصفة الذميمة فتزين له سلب النعم حتى من نفسه إذا توقف على ذلك سلبها من غيره، فهو لا

(1) الفلق/5.

يحب الخير لأحد ويتمنى أن لا يبقى على وجه الأرض منعم عليه، وإنما ينشأ الحسد من العُجْب وحب الذات فتسول له نفسه أن غيره ليس أهلاً لنعم اللّه، وكفى بهذا محادة للمُنْعِم.

والحسد شر تلازمه شرور، العُجب والاحتقار والكِبْر، وقد جمع إبليس هذه الشرور كلها، حسد آدم عُجْبا بنفسه فقال: **(أنا خير منه)**[1]، ورآه لا يستحق السجود احتقاراً له فقال: **(أرأيتَكَ هذا الذي كرَّمْتَ عليَّ)**[2]، ثم تكبر ولم يسجد ورضي باللعنة والخزي. ولا أشنع من صفة يكون إبليس فيها إمامًا.

والحسد شر على صاحبه قبل غيره، لأنه يأكل قلبه ويؤرق جفنه ويقضّ مضجعه، ولا يكون شرًا على غيره إلاّ إذا ظهرت آثاره بأن كان قادرًا على الإضرار أو ساعيًا فيه ولهذا قال تعالى: إذا حسد. والمتمني للشيء لا يمنعه من إتيانه إلا العجز.

وأعظم ما ينمي الحسد ويغذيه، امتداد العين إلى ما متع اللّه به عباده من متاع المال والبنين، ونعمة العافية والعلم والجاه والحكم، وقد نهى اللّه نبيه عن مد العين إلى ما عند الغير فقال: (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم زهرة الحياة الدنيا لِنَفْتِنَهُم فيه ورزق ربك خير وأبقى).

وفي هذه الآية مع النهي إرشاد إلى علاج الحسد، فإن الحسد مرض نفساني معضل، ولكنه كغيره من الأمراض النفسية يعالج، وقد وصف الحكماء له أنواعًا من العلاج فصلتها كتب السنة وكتب الفقه النفسي ككتاب الإحياء للغزالي.

---

(1) ص / 76.
(2) الإسراء / 62.

سورة الناس:

قال تعالى: ﴿قل أعوذ برب الناس﴾[1] : قد علمنا أن الصفة الجامعة بين هذه السورة وبين التي قبلها (هي المعوذتان)، وعلمنا أنها تسمية نبوية وقد جرت هذه الصفة مجرى الاسم لهما، أما الاسم الخاص بهذه السورة فهو: الناس، كما أن الاسم الخاص بالسورة الأولى: الفَلَق، والمناسبة بين السورتين يرشد إليها اشتراكهما في الوصف وهو التعوذ بهما من الشرور المذكورة فيهما، وفي السورة الأولى الاستعاذة من الشر العام ومن ثلاثة أنواع منه ذكرنا الحكمة في تخصيصها بالذكر. وفي هذه السورة الاستعاذة من شر واحد لكنه سبب في شرور كثيرة.

والمناسبة القريبة بين السورتين هي أن النفوس الشريرة ثلاثة أقسام: قسم يصدر عنه الضرر ويعلمه، وقسم لا يريد الخير فيسعى في سلبه وانتزاعه وهو شر من الأول، وقسم يعمل إلى إيصال الشر إلى سلطان الجوارح ومالك هديها وهو المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله. فهو يحسن له الأشياء القبيحة، ويأتيه من جميع النواحي على وجه النصح وإرادة الخير، ويزيّن للإنسان كل ما يُرديه من القبائح، ويأتيه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله قريبًا منه متصلاً بهواه، وهذا القسم الأخير هو الذي يوسوس بكلمة السوء مزينة الظاهر مغطاة القبح حتى تستنزل صاحبها إلى الهلاك، ولما كان هذا القسم الثالث أعظم خطراً وأكثر شراً وأخسر عاقبةً خصص التعوذ منه بسورة كاملة.

ربّ الناس: هو مربّيهم ومعطيهم في كل مرتبة من مراتب الوجود ما يحتاجون إليه لحفظها، وهاديهم لاستعمال ما منّ به عليهم فيما ينفعهم،

---

(1) الناس / 1.

(ربّنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى)[1]، وأصله من ربَّه يَرُبُّه ربًا إذا قام على إنشائه وتعاهده في جميع أطواره إلى التمام والكمال، ولفظه لفظ المصدر، ولكن معناه معنى اسم الفاعل كالعدل يراد به العادل.

ومالك الناس: هو الذي يملك أمر موتهم وحياتهم ويشرع لهم من الدين ومن الأحكام ما يوافق حياتهم الدنيوية والأخروية.

وإله الناس: هو الذي يدينون له بالعبادة والعبودية.

وبلاغة الترتيب إنما تظهر جلية عند استعراض أطوار الوجود الإنساني. فالأول: طور التربية والإعداد، وهما من مظاهر الربوبية، والثاني: طور القوّة والتدبير، وهما من مظاهر الملك، والثالث: طور الكمال والقيام بوظائف العبودية، وهو من مظاهر الألوهية.

والمستعاذ منه تارة يوسوس للإنسان بما يفسد عليه صلته بربه، وتارة بما يفسد عليه تدبيره وما شرع له لمنفعته وصلاحه، وتارة بما يفسد عليه عبوديته له وهي أشرف علائقه به وأقوى صلاته، وجماع ذلك أن يبعده عن الله بالوسوسة بواحدة من هذه أو بكلها أو بما يتفرع عنها مما تضمنته الآياتا المبينة لأفعال أصل هذه القوّة الموسوسة مثل قوله تعالى: (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء). أو لذلك الشأن الجاري مجرى الحوار بين إبليس وخالقه كقوله تعالى: (قال فبعزّتك لأغوينهَّم أجمعين)[2]. وكقوله تعالى: (قال أرأيْتَكَ هذا الذي كرمْتَ عليَّ لئن أخرّتَني إلى يوم القيامة لأحتنَكَنَّ ذريته إلاَّ قليلاً)[3]. وكقوله تعالى: (ولأُضِلَّنَّهُمْ ولأُمَنِّيَنَّهُمْ ولآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذان الأنعام ولآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خلق الله)[4]. فهو جاهد في أن يبعد الناس عن الله بإفساد العقيدة الصحيحة فيه،

---

(1) طه /

(2) ص / 82.

(3) الإسراء / 62.

(4) الأنعام / 119.

أو بالصرف عن شرع اللّه، أو بالحمل على عبادة غيره، فلذلك كله جاء الترتيب على هذا النمط المذكور بتلك العلائق القوية التي يريد الشيطان أن يقطعها.

والرب رب الناس وغيرهم، بل رب العالمين، وإنما خصَّ الناس بالذكر لأنهم هم هدفه ومرمى وسوسته. ولأنهم هم المأمورون بالاستعاذة منه، ولأن عالم التكليف أشرف، فإليهم يوجّه الخطاب وإليهم يساق التحذير، وهذه الوسوسة نتيجة للعداوة بين أصليهما، فأمر اللّه بالاستعاذة منها هو تسليح إلهي لبني آدم لتثبيت سنّة التعمير التي هي حكمة اللّه من وجودهم.

ونكتة أخرى في تخصيص الناس بالذكر دون بقية أفراد المربوبين وهي أنهم هم الذين ينطبق عليهم ناموس الهداية والضلال. وقد ضلوا بالفعل في ربوبية اللّه وفي ألوهيته. ضلوا في الربوبية باتخاذ المشرعين ليشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به اللّه، ويصدّوهم عما شرع اللّه. وضلّوا في الألوهية بعبادة غير اللّه بما لا يعبد به أحد غيره كالدعاء.

واختير لفظ الناس من بين الألفاظ المشاركة له في الدلالة كالبشر والبرية، لأنه يَنوسُ ويضطرب وينساق، وهي صفات يلزمها التوجه ويسهل التوجيه فلا غنى لصاحبها عن توفيق اللّه للوجهة الصالحة والتسديد فيها ما دام لا يملك لنفسه ذلك، وما دام محاسباً عليه، وما دامت هناك قوّة مسلطة تنزع به إلى الشر.

ففي تخصيص الناس بالذكر تنبيه إلى أنهم أحوج المربُوبينَ إلى تأييد اللّه وأحقهم بطلب ذلك منه، وقد أرشدهم إلى ذلك وله الحمد.

ولو تفقّه الناس في معنى اسمهم واشتقاقه لعلموا بفطرتهم أنهم مخلوقات ضعيفة لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضراً، ولأيقنوا أنه لا بد لهم من رب يربيهم ويحميهم، ومالك يدبر أمورهم، وإله يعبدونه ويتخذون العبودية له جُنَّة من استعباد الأقوياء.

ويجوز -إذا راعينا الأدب وكمال التنزيه في حمل الألفاظ التي تضاف إلى كلمة رب على أشرف معانيها- أن تحمل كلمة (الناس) على معنى أخص مما يتناوله عموم الجنس، وهو الأماثل والأخيار منهم، الجامعون لمعاني الإنسانية الفاضلة، وهذا المعنى تعرفه العرب فإنهم كثيراً ما يطلقون اسم الجنس على الفرد أو الأفراد الكاملين في حقيقته. وإن كان هذا من المجاز في كلامهم وقد حملوا على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿آمِنُوا كما آمَنَ الناس﴾[1].

ونكتة الإعادة والإظهار للفظ الناس، توضيح المعنى وإلفات النفس إليه وإيقاظ شعورها به، والتسجيل على الناس بأن لهم ربًا هو مالكهم وإلههم.

﴿من شر الوسواس﴾[2]: الوسواس هنا صفة الموسوس وإن خالف المعهود في أبنية الصفات، أو هو اسم بمعنى الوسوسة، كالزلزال والزلزلة، وأصل هذه الكلمة دائر على معنى الخفاء، والعرب تسمي حركة الحلي وسواسًا، وهذا المعنى واضح في المراد هنا فإن الموسوس من الجن في نهاية الخفاء هو وعمله، والموسوس من الإنس يتحرى الإخفاء ما استطاع، ويُحْكم الحيلة في ذلك ولا يرمي رميته إلاّ في الخلوات. وإن الناس ليعرفون عرفانًا ضروريًّا من الفرق بين المصلحين والمفسدين أن الأولين يصدعون بكلمة الحق مجلجلة، ويرسلون صيحته داوية ويعملون أعمالهم في وضح النهار ومحافل الخلق، وأن الآخرين يتهامسون إذا قالوا، ويستترون إذا فعلوا، ويعمدون إلى الغمز والإشارة والتعمية، ولو وجدوا السبيل لكانت لهم لغة غير اللغات، ولكان الزمن كله ظلمات، والأرض كلها مغارات.

---

(1) البقرة / 13.

(2) الناس / 4.

والخناس: وصف مبالغة في الخانس من الخنوس وهو التأخر بعد التقدم، ومن ملابسات هذا المعنى ومكملاته في المحسوس أنه يذهب ويجيء ويظهر ويختفي، إغراقًا في الكيد وتقصيًا في التطور حتى يبلغ مراده. فاللّه تعالى يرشدنا بوصفه بهذه الصفة إلى أن له في عمله كرًا وفرًا، وهجومًا وانتهازًا، واستطرادًا على التصوير الذي صوره إبليس في ما حكى اللّه عنه: ﴿**ثمّ لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيْمانهم وعن شمائلهم**﴾[1]. يرشدنا بذلك لنُعِدَّ لكل حالة من حالاته عدتها. ولنُضيّق عليه المسالك التي يسلكها، كما أن وصفه بهذه الصفة يشعر بأنه ضعيف الكيد، لأن الخنوس ليس من صفات الشجاع المقدام، وإنما هو كالذباب تذبه بذكر اللّه من ناحية فيأتيك من ناحية ثم دواليك حتى تملّ أو يملّ. وأما التهويل في وصفه بما يأتي بعد فهو مبالغة في التحذير منه لأن وصفه بالضعف مظنة لاحتقاره والتساهل في أمره.

الذي يوسوس في صدور الناس: قال يوسوس بالمضارع إشعارًا بعد إشعار بتجدد الوسوسة منه وعدم انقطاعها، وقال في صدور الناس. والصدر ملتقى حنايا الأضلع ومستودع القوى التي كان الإنسان إنسانًا بها، ومجمع المضغ التي تحمل تلك القوى، والقلب واحد منها، فالقلب غير الصدر وإنما هو فيه، ولذلك قال: ﴿**ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾[2]. ومواقع استعمال القرآن لكلمة الصدر مفردًا وجمعًا والحكم عليها بالشرح والحرج والضيق والشفاء والإخفاء والإكنان –ترشدنا إلى أنه ليس المراد منه الصورة المادية ولا أجزاءها المادية وإنما المراد القوى النفسية المستودعة فيه، وأن الوسواس الخناس يوجّه كيده ووسوسته دائمًا إلى هذه القلعة التي هي الصدر لأنها مجمع القوى.

---

(1) الأعراف/ 17.

(2) الحج / 46.

وقال في صدور الناس ولم يقل في قلوب الناس، لأن القلب مجلى العقل ومقر الإيمان، وقد يكون محصنًا بالإيمان فلا يستطيع الوسواس أن يَظْهَرُه ولا يستطيع له نقبًا.

(من الجِنّة والناس)[1]: الجِنَّة جماعة الجن وهو خلاف الإنس، والمراد هنا أشرار ذلك الجنس لأن منهم المسلمين ومنهم القاسطين. واستعمل لفظ الجِنّة في القرآن بمعنى المصدر الذي هو الجنون في قوله تعالى: **(ما بصاحبكم من جِنَّةٍ)**[2]. ولما كان الموسوسون فريقين متعاونين على الشر ذكرهما اللّه تعالى في مقام الاستعاذة من شر الوسوسة ليلتئم طرفا الكلام ويحصل التقصي الوصفي في المستعاذ به والمستعاذ منه.

وقد قسم القرآن الشياطين وهم القائمون بوظيفة الوسوسة إلى قسمين: شياطين الإنس وشياطين الجن، وذكر أن بعضهم يوحي إلى بعض زخرف القول، وشيطان الجن ميسر للشر، فكل من يعمل عمله من الإنس فهو مثله، ومن شياطين الإنس بطانة السوء وقرين السوء.

وورد في الآثار أن لكل إنسان قرينًا من الجن، وقال تعالى: **(ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نُقَيِّض له شيطاناً فهو له قرين)**[3]. وقال: **(وقيضنا لهم قرناء)**[3]، وهو من باب توزيع الجمع على الجمع أي لكل واحد قرين، فهذا الإنسان الضعيف يلازمه قرين من الجن ثم لا يخلو من قرين أو قرناء من الإنس، يزيّنون له ما بين يديه وما خلفه، ويصدّونه عن ذكر اللّه، فماذا يصنع؟ ما عليه إلاّ أن يلتجئ إلى اللّه ويستعيذ به ويتذكر، فإنه لا يؤخذ وهو ذاكر مستيقظ، وإنما يؤخذ إذا كان غافلاً، قال تعالى: **(وإما ينزغنَّك من الشيطان نَزْغٌ فاستعذ باللّه)**[4]، وقال تعالى: **(إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون)**[5].

(1) الناس / 6. (2) سبأ / 46. (3) الزخرف 36. (4) فصلت / 25. (5) الأعراف / 201.

ومن دقائق القرآن ولطائفه في البلاغة أنه يقدم أحد الاسمين المتلازمين في آية لسرّ من أسرار البلاغة يقتضيها ذلك المقام، ثم يؤخر ذلك المقدم في آية أخرى لسرّ آخر، فيقدم السماء على الأرض في مقام ويؤخرها عليها في مقام آخر، ومن هذا الباب تقديم الإنس على الجن في آية الأنعام لأن معرض الكلام في عداوتهم للأنبياء وهي من الإنس أظهر ودواعيها من التكذيب والإيذاء أوضح. وفي آية «الناس» قدم الجنة على الناس لأن الحديث عن الوسوسة وهي من شياطين الجنّ أخفى وأدقّ، وإن كانت من شياطين الإنس أعظم وأخطر وأدهى وأمرّ، فشيطان الجن يستخدم شيطان الإنس للشر والإفساد فيربى عليه ويكون شرًّا منه لأنه بمثابة السلاح الذي يفتك به، ورب كلمة واحدة صغيرة يوحيها جنيٌّ لإنسي ويوسوس إليه بتنفيذها، فتتولّد منها فتن ويتمادى شرها من قرن إلى قرن ومن جيل إلى جيل، وهذا النوع الإنساني المهيأ لقابلية الخير وقابلية الشر، إذا انحط وتسفّل كان شرًّا محضًا، وإذا ترقى وتعالى شارف أفق الملإ الأعلى وأوشك أن يكون خيرًا محضًا لولا أن العصمة لم تكتب إلاّ لطائفة منه وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فالإنسان إذا انحطّ يكون شرًّا من الشيطان، وإذا ارتقى يكون أفضل من الملك -أعني جنس الإنسان- ومن هذا الجنس كان محمد ﷺ أكمل الخلق الذي ليس لمخلوق رتبة مثله في الكمال.

انتهى تلخيص الدرس وقد حرصنا على ما وعته الذاكرة من معانيه وقيده القلم من ألفاظه، ثم تصرفنا في المواضيع التي طرقها الأستاذ بما لا يخرج عن مراده ولا يخالف طريقته في تفسير كلام اللّه. واللّه ينفعنا بالقرآن ويوفقنا إلى خدمته.

5- خطبة الأستاذ الإبراهيمي التي ختم بها حفلة التكريم للأستاذ ابن باديس في كليّة الشعب (*)

« ارتجل الأستاذ خطبته هذه فلم تصطد أقلام الكاتبين من ألفاظها إلا قليلاً مشوّشًا لم يحفظ ترابط المعاني بين أجزائها، فألحّ جماعة من السامعين المعجبين على الأستاذ أن يكتب ما علق بذاكرته من ألفاظها ويضيف إليها بقلمه ما يربط بين معانيها حرصًا على تخليدها في خطب الاحتفال، فحقّق رغبتهم بكتابة ما يراه القارئ منشوراً بعد هذا »:

أيها الملأ الكرام:

ما أشرقت شمس في الجزائر الحديثة على مثل يومكم بالأمس، ولقد مضى بجلاله وروعته ولم ينطق في وصفه لسان بكلمة ولا اختلجت في نعته شفتان بحرف، لا زهداً فيه ولا عدم عرفان لحقّه ولا غبنًا لحقيقته، كيوم شوقي الذي قال فيه:

غبنت حقيقته وفات جمالهــا　　　باع الخيال العبقري الملهــم

وإنما هو كلام اللّه وبيت اللّه عقدا الألسنة بجلالهما وحبسا النفوس على جمالهما، فجاء اليوم وجاءت كليّة الشعب يقضيان من ذلك حقًا غير مغفل.

(*) «الشهاب» الجزء الرابع، المجلد الرابع عشر، جوان – جويلية 1938، ص 277.

إن يوم أمس من أيام الأُمَم، ولأيام الأمم غرر لوامع في تاريخها، ويد صناع في بناء مجدها، وصلة لا تنضب بتكوين أسباب بقائها وعظمتها، كما أنها شهود ناطقة بما في الأمّة من معاني العزّ والعظمة.

لسنا نعني بأيام الأمم، هذه الأيام المتعاقبة التي يجمعها نسق الأسبوع وتُعرف بالأعلام وتمتاز بمراتبها العددية في الشهر، فقد تمرّ الآلاف منها على الأمم من غير أن تجمعهم جمعها على مأثرة تكسبهم عزًّا ومن غير أن توحّدهم آحادها على عمل يرفع لهم ذكراً. ثم لا تكون زيادتها إلا نقصاً في أعمار الأفراد وإبلاء للجديد من حياة المجموع.

وإنما نعني هذه الأيام التي هي لمع في الدهور، وشيات في غرر العصور، هذه الأيام التي تعرف بما يقع فيها من الأعمال، لا بما يوضع لها من الأعلام، وتذكر بآثارها في الأمم، لا بمواقعها من الأسبوع أو الشهر، هذه الأيام التي تطول وتتسع حتى تستغرق القرون وتستوعب الأجيال على حين يبقى غيرها محدوداً بمطلع الشمس ومغربها.

إن أحداً من المسلمين لا يجهل يوم بدر ولا يجهل -وإن كان عاميًّا- أثره في ظهور التوحيد على الشرك، ولكن قليلاً منهم من يعرف أن اسمه يوم كذا وأن نسبته من الشهر كذا، وقد غربت شمس يوم بدر منذ مئات الآلاف من الأيام وجرّ عليه الفلك أذيال عشرات الآلاف من شركائه في الاسم، فلم يعف له رسمًا ولم يطمس له أثرًا. ومات معناه الزمني المحدود ولكن معناه التاريخي النفسي لم يمت بل هو باق ما بقي الإسلام، طويل العمر ما طال، واسع المعنى ما اتسع.

ولقد علّمتنا لغة العرب فنًّا في مصاص الأشياء فقهنا منه أن من النساء عقائل، وأن في الأموال كرائم، وأن في الجواهر فرائد، وأن في النجوم دراري، وأن في الشعر عيونًا، وأن في الذخائر أعلاقًا إلى آخر ما يجري على هذا النسق، حتى إذا وصلنا إلى الأيام، وهذا أشد -من كل شيء- ارتباطًا بشؤوننا، لم نجد لمصاصها في اللغة إلا أوصافًا يتعاورها اشتراك الموصوفات، ويتجاذبها اختلاف الاعتبارات، ثم يذيلها شيوع الاتصاف وتبذل الاستعمال حتى تقصر عن التأدية، خصوصًا حين يفيض الوصف التاريخي على الوصف اللغوي، وإن من معجزات القرآن تسميته ليوم بدر الفرقان.

ولكن يسلينا أن ما قصرت فيه اللغة فلم تأت فيه بوصف يليق بجمالها وجلال هذه الأيام، قد وفى به التاريخ فلم نحفظ من أيام الأمم الكثيرة إلا أيامًا قليلة فكان ذلك منه تعبيرًا فصيحًا على أن هذه الأيام هي الخوالد من بين الأيام البائدة. وهي الغرر في الكثرة البهيمة، وهي المشهودات وغيرها غفل: وكان ذلك منه وضعًا تاريخيا يخصص الأوضاع اللغوية. فإذا قلنا هذا يوم خالد ويوم أغرّ ويوم مشهود اطمأنت النفوس إلى تمام التأدية بمراعاة الوضعين التاريخي واللغوي.

أيها الإخوان:

إن يومكم الذي نتحدث عنه هو اليوم الأغرّ المحجل في تاريخ الجزائر الحديث ولا أبعد إذا قلت إنه اليوم الأغرّ في قرون من تاريخ الإسلام.

هذا هو اليوم الذي يجب أن نؤرّخ له في الطور الجديد من أطوار نهضتنا العلمية الدينية، ونؤرّخ به لمبدإ ازدهارها وإثمارها، ونموّها وإبدارها.

هذا هو اليوم الذي التفَّت فيه الأمّة حول دينها ولغتها فأثبتت أنها أمّة مسلمة عربية يأبى لها دينها أن تلين فيه للعاجم، وتأبى لها عربيتها أن تدين فيها للأعاجم.

هذا هو اليوم الذي تعلن فيه هذه الأمّة إنابتها إلى ربّها، وتكفيرها عن ذنبها ورجوعها إلى اللّه رجوع عبد أوبقته جرائره، وافتضحت سرائره، وانقطعت أواصره، وعزّ مغيثه وناصره، وظن أن لا ملجأ من اللّه إلا إليه، فرجع على الطريق التي منها هرب. فإن هروب هذه الأمّة من اللّه هو تفلتها من كتابه وبعدها عن هدايته، والتماسها الوصول إليه على غير طريقه، فضلّت وتاهت قرونًا وها هي ذي تفيء إلى اللّه على طريق كتابه وسنّة محمّد وأصحابه وعسى هادي الحائرين أن يعود عليها بعوائد برّه وإحسانه.

هذا هو اليوم الذي يختم فيه إمام سلفي تفسير كتاب اللّه تفسيرا سلفيًّا ليرجع المسلمون إلى فهمه فهمًا سلفيًّا، في وقت طغت فيه المادة على الروح ولعب فيه الهوى بالفكر، وهفت فيه العاطفة بالعقل، ودخلت فيه على المسلم دخائل الزيغ في عقائده وأخلاقه وأفكاره، وفي أمّة تقطعت صلاتها بالسلف وضعف تقديرها للقرآن، فأصبح ملهاة آذان ومشغلة لسان، وأصبح حفاظها يَقْرأونه للتبرّك أو يتجرون به في المقابر، وعوامها ينزلونه منزلة البصل والكرّاث فيستشفون بحروفه من أمراض سببتها الحرارة أو جلبتها البرودة، وعلماؤها يدرسونه بلغة المصطلحات العرفية، ويتناولونه بأذهان حشيت بالأفكار الطائفية، والتعصبات

المذهبية، والمحامل الجدلية، والتوجيهات اللفظية، وبكتب مُلئت بالإسرائيليات المصنوعة والآثار الموضوعة والنظريات، والطلبة -وهم صرعى هذه الفتن- يتلقونه بألسنة جافت البيان العربي وصرفتها العجمة في منهاج غير منهاج العرب، ففسد الذوق واختلّ التصور -وبأفكار غطّى عليها الجمود وسدّ عليها منافذ التفكير- وبنفوس ركبها الملل والسأم، فرضيت بسماع ما لا يفهم وتلقّي ما لا يعقل، وهان الزمان في حسابها فأصبحت تنفق منه جزافًا، واختلّ تقدير الأشياء عندها فأصبح كل مقروء علمًا وكل قارئ عالمًا.

وأشهد، لقد كنت ضيفا بتونس منذ سبع عشرة سنة، فقيل لي عن عالم من مشائخ جامع الزيتونة من أبعدهم صيتًا في عالم التدريس: إنه يقرئ التفسير. فشهدت يومًا درسه لأُكوِّن فكرة عن دراسة التفسير في ذلك المعهد الجليل. وكنت معنيًّا بهذا البحث وجلست إليه أكثر من نصف ساعة، فوالذي نفسي بيده ما سمعت منه كلمة واحدة من الآية التي هي موضوع الدرس ولا لمحت أمارة ولا إشارة تدُلّ على أن الدرس في التفسير. وما كان كل الذي سمعت إلا حكاية لجدل عنيف وتمثيلاً لمعركة لفظية مستعرة بين السيد الجرجاني وعبد الحكيم حول عبارة لعلها لمفسّر من المفسّرين الاصطلاحيين،ثم انقضت الحصة وقام الطلبة المساكين يتعثرون، تبدو عليهم سيماء التعب والملل والخيبة، وقمت أنا مستيقنًا أن هذه الطريقة في التفسير هي أكبر الحجب التي حجبت المسلمين عن فهم كتاب اللّه ثم زهدتهم فيه وصدتهم عن موارده.

أيها الإخوان:

إن الأمّة الإسلامية التي يقرأ الناس أخبارها في التاريخ فيقرأون المدهش المعجب، ويرى الناس آثارها في العلم والتشريع والأدب والحكمة فيرون الطراز العالي البارع، فيستوي المحب والمبغض في الاعتراف بأن أمّة هذه أخبارها وهذه آثارها لهي الأمّة حق الأمّة، إن تلك الأمّة ما كانت أمّة بذلك المعنى وتلك الأوصاف إلا بالقرآن.

فالقرآن هو الذي ربّاها وأدّبها وزكّى منها النفوس، وصفّى القرائح، وأذكى الفطن، وجلا المواهب، وأرهف العزائم، وهذّب الأفكار، وأعلى الهمم، واستفزّ الشواعر، واستثار القوى، وصقل المَلَكات، وقوّى الإرادات، ومكّن للخير في النفوس، وغرس الإيمان في الأفئدة، وملأ القلوب بالرحمة، وحفّز الأيدي للعمل النافع والأرجل للسعي المثمر، ثم ساق هذه القوى على ما في الأرض من شر وباطل وفساد فطهّرها منه تطهيراً وعمرها بالخير والحق والصلاح تعميراً.

أيها الإخوان:

قارنوا بين هذه الأمّة الإسلامية المطوية في بطن الأرض وفي بطون الكتب، وبين هذه الأمّة الإسلامية التي تدب على وجه الأرض تجدوا الفرق بعيداً جداً، ووجوه الشّبه مفقودة البتة مع وجود الاشتراك في الاسم والنسبة. ثم التمسوا السبب تجدوه قريباً منكم، وما هو إلا هذا القرآن أقامه الأولون وجمعوا عليه قلوبهم وراضوا نفوسهم على أخلاقه، فعلمها الإيمان والأمان والإحسان، واتخذه الآخرون مهجورا فحقت عليهم كلمة الله في أمثالهم. فمن لي بمن يرسلها في مسلمي الدعوى والعصبية صيحة داوية: يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن؟

أيها الإخوان:

إن هذه البسيطة لم تشهد منذ دحاها اللّه صلاحًا عامًا وسعادة شاملة كالذي جاءها به القرآن يوم أنزله اللّه على قلب نبيّه محمد ﷺ فأنذر به العالمين ونشره ورثته الأمناء من بعده نقي الجوهر ناصع الحجة.

وإن هذا العالم الإنساني لم يشهد منذ برأه اللّه على ظهرها إفساداً عامًا وشرًّا مستحكمًا وطاعونًا أخلاقيًّا جارمًا إلا مرتين، على كثرة ما شهد من الطواعين الجسمانية.

أما إحداهما فكانت قبل الإسلام يوم كان العالم الإنساني كله فريسة للأثرة والاستعباد والاستبداد والفساد والإفساد، يوم كان بحراً متلاطم الأمواج بالرذائل، ويوم كان العقل عبداً للهوى والفكر عبداً للوهم، والحقيقة أمة للخرافة والفطرة رهينة الاعتلال والاختلال، يوم كان هذا العالم كله خاضعاً لشهوات مضطرمة وحيوانية عارمة ووثنية متغلغلة.

ولكن اللّه –جلت قدرته– تداركه، وبه رمق، بالإسلام دين السلام وكتابه القرآن كتاب العدل والإحسان، وبرسوله الأمين يحمل منه للعالَم المثخن الدواء الشافي، ويمسح على مواقع الألم منه بالكف الكافي. فما هي إلا فترة حتى أصبح العالم يمرح في السعادة ويسبح في النعيم وينعم بالأخوّة والتسامح ويتقلب في أعطاف العدل.

وأما الثانية فهي في عهدكم هذا.

ولو أنكم تستشهدون التاريخ: أية المرّتين كانت أشرّ وأشرّ وأدهى وأمرّ، لقال لكم غير متجانف لإثم: إن شرّ المرّتين آخرتهما. ولساق

لكم من الحجج ما لا تستطيعون له دفعاً. فإن الشرّ الأول كان من بعض دواعيه الجهل، أما هذا الشرّ فكل دواعيه العلم. وقد كان الشر يعرض على الناس باسمه وفي ثوبه الحقيقي فأصبح يعرض عليهم باسم الخير وفي ثوب الخير. وقد كان العالم متباعد الأجزاء متقطع الأوصال. وفي تباعد الأجزاء تقليل من بواعث الشر، فأصبح العالم مزدحماً حتى ليكاد يلتحم. ومن ازدحامه والتحامه نشأت معضلته الاجتماعية الكبرى وهي مشكلة الأغنياء والفقراء التي لم يفلح في حلّها علم العلماء ولا حكمة الحكماء ولا قوّة الأقوياء ولا دهاء الدهاة، والتي تفاقم خطبها واضطرام لهيبها حتى أصبح بنو آدم المتآخون في نسبه فريقين مضطغنين يتربص كل فريق بأخيه دائرة السوء. ويا ويل هذه الأرض إذا انفجرت الأحقاد بين أبنائها.

وقد عرفنا التاريخ أن أصل البلاء بين البشر جاء من عصبياتهم المختلفة. وكان مما يهون تلك العصبيات أنها محدودة وأنها تعالج بعصبيات أخرى فيخف ضررها وتتلاشى قوّتها. ولكن مشكلة اليوم أن تلك العصبيات التي كانت تنفع حيناً وتضرّ أحياناً ذابت كلها في عصبيتين جامحتين كلتاهما ضرر وكلتاهما شر.

إن رحمة الأرض آتية من السماء، وقد جاءت أديان السماء فعلّمت الفقير كيف يرضى ويصبر، وعلّمت الغني كيف يحسن ويرحم، فلماذا لا يرجع بنو الأرض إلى حكم السماء ورحمته؟ ولماذا لا يلتمسون مُثُل الإحسان الكاملة في القرآن؟

أيها الإخوان:

هذا داء العالم البشري فأين دواؤه؟ وهذا مرضه العضال فأين طبيبه؟ وهل يتداركه اللّه بلطفه فيهدي البشر إلى اتباع ما جاء به القرآن من تسامح وتعاون على الخير؟

فيا أيها المشفقون على العالم الإنساني أن يأكل بعضه بعضا، انصحوه بالرجوع إلى الإسلام وكتابه يجد فيهما ظلال السلم وبرد الرحمة وعز القناعة وشرف التقوى ويتمتع من كل ذلك بنعمة السلام.

ويا أيها المسلمون، أنتم أطباء هذه المعضلات ولكنكم جاهلون، وأنتم الحكم المَرْضِيُّ في هذه المشكلات ولكنكم غائبون. ولو كنتم حاضرين حضور سلفكم لمشاهد العالم ومنازعاته العامة لوقفتم -كما وقفوا- بعقائدهم وسطًا بين التناهي والتقصير، وبزكاتهم المرضية حكمًا بين الغني والفقير، وبرحمة الإسلام سدًّا بين الآجر والأجير؛ وإذًا لزرعتم في طول العالم وعرضه الخير والرحمة، وكشفتم عن أقويائه وضعفائه كل كرب وغمّة. وإذًا لرفعتم عن العالم هذه الأصار والأغلال وفزتم من بين حكمائه وعلمائه بتحقيق نقطة الإشكال.

إن العالم في عذاب، وعندكم كنز الرحمة؛ وإن العالم في احتراب، وعندكم منبع السلم؛ وإن العالم في غمّة من الشك، وعندكم مشرق اليقين. فهل يجمل بكم أن تعطلوه فلا تنتفعوا به ولا تنفعوا؟

طبّقوا على أنفسكم جزئية واحدة من إصلاحاته كالزكاة، واظهروا بها للعالم على صورتها العملية الكاملة، وحقيقتها العلمية العليا. ثم قفوا بين الصفين، لا كموقف عمرو بمصاحفه يوم صفين. وأشربوا نفوسهم ما أشربت

نفوسكم من معنى قوله تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾. ومن معنى قوله تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾، وأنا الضمين لكم أنهما يتحاجزان ويتسامحان في طرفة عين. إن دينكم دين إصلاح وسبب إصلاح ومظهر إصلاح وكما أوجب عليكم الإصلاح بين المؤمنين مدح الإصلاح بين الناس.

أحيوا قرآنكم تحيوا به، حقّقوه يتحقق وجودكم به. أفيضوا من أسراره على سرائركم ومن آدابه على نفوسكم ومن حكمه على عقولكم تكونوا به أطباء ويكن بكم دواء.

﴿إن اللّه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون﴾.

هذه الآية هي دستور الإسلام العام وهذه الآية هي التي نواجه بها كل من رمانا بالتعصب أو بالظلم أو بالأنانية أو بالقسوة. وصدى هذه الآية هو الذي سمعه الناس مردّداً في الجامع الأخضر خمساً وعشرين سنة آخرها أمس.

أيها الإخوان:

تكلم الخطباء والشعراء في المعنى الذي أقيمت لأجله الحفلة، وهو تكريم أخينا الأستاذ عبد الحميد بن باديس وتمجيد أعماله في خدمة الدين والعربية والعلم، وشغلتهم حقوق هذه الحفلة عن حقوق يوم أمس المشهود، وأوشكنا أن نضيع واجبه وأن يمر فلا يتغنى بأوصافه لسان، ولعل الأقلام تجفوه تبعاً لذلك فلا يجري في وصفه قلم.

وقد توزعتني الخواطر حين قمت: أأسلك ما سلكه الخطباء والشعراء من تمجيد أخينا بما هو أهله؟ ولو أني جريت في هذا المضمار وأسلس لي الكلام قياده، كان في ذلك الوفاء لأخينا المبجل،والجفاء ليومنا الأغر المحجل، وإن أنا قمت بما يوجبه الوفاء ليوم القرآن قصرت في حق أخ اعتقد أن ما قاله الشعراء والخطباء في حقه قليل، وكيف تفي حفلة مثل هذه، محدودة الساعات، بتجميد رجل طوّقت هذا الوطن مننه.

فإن قمت ببعض ما يجب للقرآن وليوم القرآن فحسبي في التنويه بأعمال أخي الأستاذ أن هذا اليوم بعض حسناته.

6- التعريف بالمشاركين في حفل ختم التفسير (*)

1- الأستاذ محمد بن العابد

الأستاذ محمد بن العابد من قدماء تلامذة الأستاذ بن باديس ومن بواكر النهضة الأدبية. أديب مشرف على الكمال، كاتب جزل الأسلوب، متين التراكيب، وفيّ للقواعد المقرّرة، مشرق الديباجة، سلس المعاني، وصّاف لخفايا النفوس ومساوي الاجتماع، شاعر رصين الشعر على إقلاله منه، باشر تعليم النشء الصغار من سنين، فحذق أساليبه وتمرّس به، فاكتسب الدأب والصبر والجلد، وله في تربية الصغار وتحبيب العلم إلى نفوسهم طرائق نفسية هو فيها نسيج وحده، وهو الآن من الأعوان المعتمدين للشيخ ابن باديس على التعليم.

2- الأستاذ عبد الحفيظ الجنّان

الشيخ عبد الحفيظ الجنّان شاب كله شعور وقلب، فتح عينيه على بوارق النهضة الإصلاحية الأولى فخطا أول خطوة في الحياة على ضوئها، ثم واصل سيره على هداها، لم ينحرف به عن صراطها إقلال ولا رقّة حال، ولا أذى راصد ولا كيد مبيت، بل ظلّ يزداد ثباتًا كلما زادته الحوادث عركًا، تلقّى العلم على الأستاذ ابن باديس سنين، ثم عاجلته الظروف وغمسته في العمل فاشتغل بتلقين القرآن للصبيان، فقدّم للنهضة عملاً لا يقدّره حق قدره إلا القليل، وإن كان لا يُحسنه من العاملين للنهضة إلا القليل، وهو تقويم ألسنة الصبيان على

(*) «الشهاب»، المجلد 14، الجزءان 4 و5، جوان وجويلية 1938.

النطق بالحروف العربية نطقًا صحيحًا متينًا مبرأً من الزيغ عن المخارج الأصيلة، ومن الحيد عن الصفات المحققة، وقيمة هذا العمل في أنه تنشئة لألسنة الأطفال منذ تفتقها، ولِلَهَواتِهم من يوم تشققها على سلامة النطق ومتانة التعبير، وهنا باب من أبواب الفصاحة يعرف قيمته مَن عرف أي بلاء صبّته العجمة على العربية من طريق مخارج الحروف وصفاتها.

والشيخ الجنّان، قبل ذلك وبعده، حركة دائمة ويد عاملة في كل الاجتماعات والجمعيات المتّصلة بالنهضة.

3- الأستاذ مبارك جلواح

الأستاذ مبارك جلواح شاعر وجداني رقيق، له نبرات مشجية في التفنّن بمحاسن اللغة العربية ومفاخر السلف الأمجاد، تغمره روح جزائرية قومية مكّن لها في نفسه نقاء النشأة والتربية، وزكاء العرق والقبيل.

قليل العناية بالصقل والتمحيص، ومن هنا جاء ما يرى في شعره من إسناد بعض الكلمات إلى ما لا يلائمها، ومن عدم الانسجام في بعض التراكيب، ومن نبو بعض المفردات في جملها، ولو أنه ملك زمام القواعد، وراض نفسه على إجادة السبك بممارسة كلام الفحول، لكان منه للجزائر شاعر أي شاعر.

4- الأستاذ عمر بن البسكري

الشيخ عمر بن البسكري داعية جهير الصوت بالإصلاح، كاتب متين القلم في الدينيات، سديد الرأي فيها، قوي الحجّة في مباحثها، أكسبه ذلك قيامُه على كتب الفحول من فقهاء السنّة أمثال ابن تيمية وابن القيم والشوكاني، وهي كتب تربّي ملكة البيان كما تربّي ملكة البرهان.

والشيخ عمر يقرض الشعر في المناسبات المتصلة بفنه، فيرسله ملونًا بعاطفته متأثرًا بإحساسه، عامرًا بالمعاني، ويغفل عما وراء ذلك من أحكام الصنعة وسياسة التراكيب، لذلك تجد في شعره -على قلّته- عيونًا من الأبيات بين أخوات لها متفاوتة الحظوظ في إجادة السبك، ويقرأ القارئ شعره وكتابته، فيحكم بأن الشيخ عمر الشاعر غير الشيخ عمر الكاتب.

والشيخ عمر أجلد دعاتنا وكتّابنا على المطالعة والقراءة، وما زلنا ننعى على علمائنا وأدبائنا هذا الكسل المزري عن القراءة، ونردّ إليه كل ما يظهر في إنتاجهم من ضعف ونقص.

ولو أن الشيخ عمر أعطى كتب الأدب ودواوين الشعر من العناية مثل ما أعطى كتب فقه السنّة، لاسْتحكم سبكه وفَحُل شعره وجزلت تراكيبه.

وإن مطالعاته الدينية التي تفتح لذهنه آفاق الإصلاح، وتلهمه سداد الرأي والقول فيها، لمحتاجة إلى مدد من مطالعات أدبية، وتمكّن لأسلوبه في الشعر، وتزيد طريقته في الكتابة متانة وقوّة، وأن عَسَى أن يتسع وقته لذلك.

5- الأستاذ السعيد الصالحي

الشيخ السعيد الصالحي أصيل النسب في العلم، سديد الخطا في التعليم، قريب المنهج في إرشاد العامة إلى الدين الصحيح، لطيف الاحتيال في الدخول إلى نفوسهم، خصوصي النزعة والتأثير، جاءه ذلك من بيئته التي نشأ فيها وأُفقه الذي اضطرب فيه، ثقيل الوطأة على دجاجلة العلم وسماسرة الدين، بارز الأثر في الإصلاح الديني: عمل له في وطنه فمكّن أصوله وأحكم قواعده، وقطع البحرفي سبيل إرشاد إخوانه المسلمين وجمع كلمتهم على الهدى والحق، فتجلّت أخلاقه الإسلامية المتينة في الصبر والثبات والعزيمة والإخلاص.

يتأثر –من ألوان الأدب القديم– باللون الأندلسي الشائع، ويقرض قليلاً من الشعر مصبوغًا بذلك اللون الذي اصطبغت به نفسه، ولكنه –كغالب إخوانه قالة الشعر بهذه الديار– ينقصه استعراض أساليب البلغاء وتحدّيها وتمرين القريحة على محاكاتها، وتيقظ الذهن إلى أسرار فقه اللغة ومواقع فصحها، ومجانبة الرخص النحوية، وتحكيم استعمالات الفصحاء في القواعد النظرية، وعسى أن تكون كلمتنا هذه حافزة لهممهم، فما أردنا بها إلا ذلك.

6- الحاج أحمد البوعوني

الحاج أحمد البوعوني، مع علو سنّه وأخذه عن طبقة بعيدة الصيت في عالم الشهرة كالشيخين عبد القادر المجاوي وحمدان الونيسي وغيرهما ممن كان الأخذ عنهم مدعاة للفخر والاستطالة وشموخ الأنف، فإنه مثال من علماء السلف في إنصافهم وإيثارهم الاستفادة على كل شيء، وإن من آثار هذا الخلق في نفسه أنه ما كان الأستاذ ابن باديس –وهوفي درجة أحفاده وممن شاركه في الأخذ عن بعض أولئك المشائخ– يتنصّب للتدريس بقسنطينة حتى أخذ الشيخ البوعوني – مع جلالة قدره وسنّه– مكانه بين التلامذة، وكان أجلدهم على ملازمة الدروس الكثيرة، وأوسعهم عارضة في البحث والمناقشة، فإذا فرغ من الدروس المقرّرة قضى بقية أوقاته في تفقّد التلامذة وتحريضهم على المطالعة وتحضير الدروس وإعادتها لهم، مما لا يضطلع به حتى الشبان الأقوياء.

ومن لطائف الاتفاق في ربط الأحفاد بالأجداد أن الشيخ البوعوني –أبقاه اللّه– كان ينظم القصائد في تهنئة مشائخه في المناسبات وفي أختام دروسهم المهمة، وقد بارك اللّه في عمره حتى شهد الاحتفال بختم التفسير من الشيخ

ابن باديس، وقد حضره كله في ربع قرن فيما نعتقد، ففاضت نفسه المنصفة بهذه القصيدة، وكانت قصائده تاريخًا لثلاثة أجيال كاملة.

إن الشيخ البوعوني حجّة اللّه على علماء عصره الذين يذهب بهم الكبر والاستنكاف إلى حرمان أنفسهم من العلم، استطالةً واغتراراً بمكانتهم في السن أو الجاه، واحتقاراً لمن هو دونهم سنًّا وإن كان فوقهم علماً.

7- الأستاذ محمد العيد

الأستاذ محمد العيد، شاعر الشباب وشاعر الجزائر الفتاة، بل شاعر الشمال الإفريقي بلا منازع.

شاعر مستكمل الأدوات، خصيب الذهن، رحب الخيال، متسع جوانب الفكر، طائر اللمحة، مشرق الديباجة، متين التركيب، فحل الأسلوب، فخم الألفاظ، محكم النسج ملتحمه، مترقرق القوافي، لبق في تصريف الألفاظ وتنزيلها في مواضعها، بصير بدقائق استعمالات البلغاء، فقيه محقِّق في مفردات اللغة علمًا وعملاً، وقاف عند حدود القواعد العملية، محترم للأوضاع الصحيحة في علوم اللغة كلها، لا تقف في شعره -على كثرته- على شذوذ أو رخصة أو تسمح في قياس أو تعقيد في تركيب أو معاظلة في أسلوب، بارع الصنعة في الجناس والطباق وإرسال المثل، والترصيع بالنكت الأدبية والقصص التاريخية.

ومن يعرف محمد العيد، ويعرف إيمانه وتقواه وتديّنه وتخلّقه بالفضائل الإسلامية، يعرف أن روح الصدق المتفشية في شعره إنما هي من آثار صدق الإيمان وصحّة التخلّق، ويعلم أنه من هذه الناحية بدع في الشعراء.

رافق شعره النهضة الجزائرية في جميع مراحلها، وله في كل ناحية من نواحيها وفي كل طور من أطوارها وفي كل أثر من آثارها القصائد الغرّ، والمقاطيع الخالدة، فشعره -لو جمع- سجل صادق لهذه النهضة، وعرض رائع لأطوارها.

وقد سَمَتْ نفسه في العهد الأخير إلى الشعر الفلسفي ونظم فيه عدّة مقطوعات لزومية رائعة نشر القليل منها.

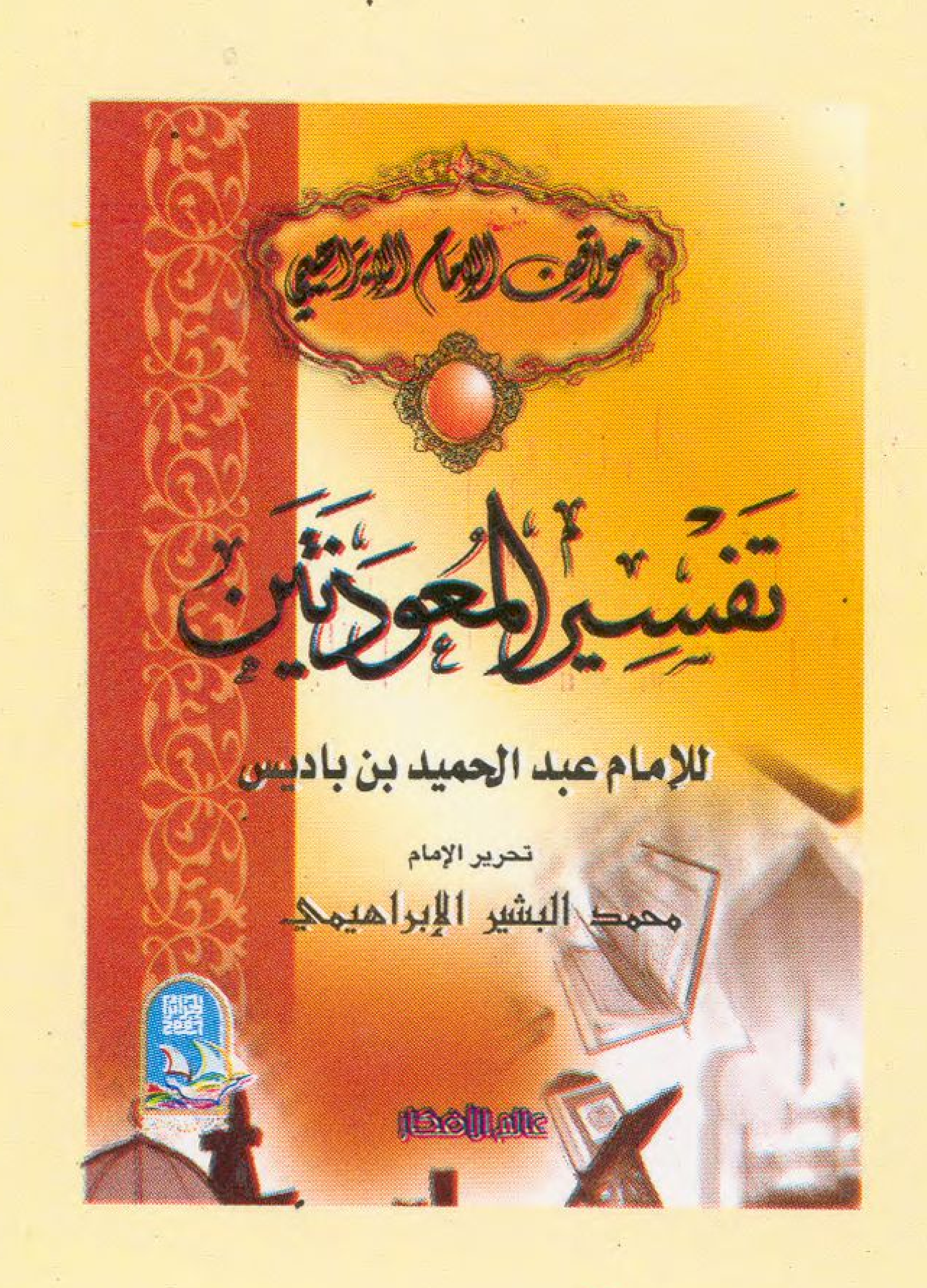
وإذا كان في النهضة العلمية الأدبية بالجزائر نواحي نقص فمنها أن يبقى شعر محمد العيد غير مجموع ولا مطبوع[1].

---

(1) شاءت الأقدار أن يقوم بطبع ديوان محمد العيد، نجل الإمام الإبراهيمي، الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي: «ديوان محمد العيد» (الجزائر 1967، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع).

الفهرست

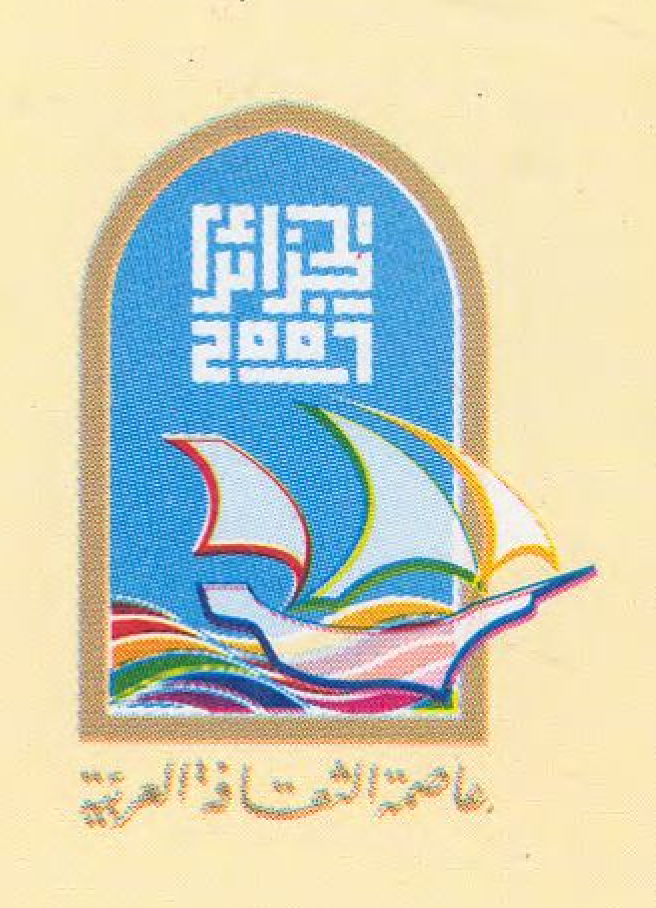
هذا الكتاب



أتم الله نعمته على القطر الجزائري بختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير الكتاب الكريم درسا على الطريقة السلفية. وكان إكماله إياه على الطريقة في خمس وعشرين سنة متواليات مفخرة مدخرة لهذا القطر. وبشرى عامة لدعاة الإصلاح الديني في العالم الإسلامي كله، تمسح عن نفوسهم الأسى والحزن لما عاق إمام المصلحين محمد عبدو عن إتمامه درسا، و لما عاق حواريه الإمام رشيد رضا عن إتمامه كتابة.

إن إكمال تفسير القرآن على تلك الطريقة في مدة تساوي -بعد حذف الفترات- المدة التي أكمل الله نزوله فيها، يعد في نظر المتوسمين إيذانا من الله برجوع دولة القرآن إلى الوجود، وتمكين سلطانه في الأرض، وطلوع شمسه من جديد، وظهور المعجزة المحمدية كرّة أخرى في هذا الكون.

ثم كان الاحتفال بختمه بمدينة قسنطينة في الثالث عشر من ربيع الثاني عام 1357هـ دليلا على انسياق الأمة الجزائرية المسلم
واستجابتها لداعي القرآن واجت
على القرآن وشعورها بلزوم الرجو
القرآن، ولا معنى لذلك كله إ
القرآن على الطريقة السلفية إ
التي تدين به.





122
9
36
05483307